
برنارد شو
والاسلام
كتاب
الهلال

للغسالات الأوتوماتيكية

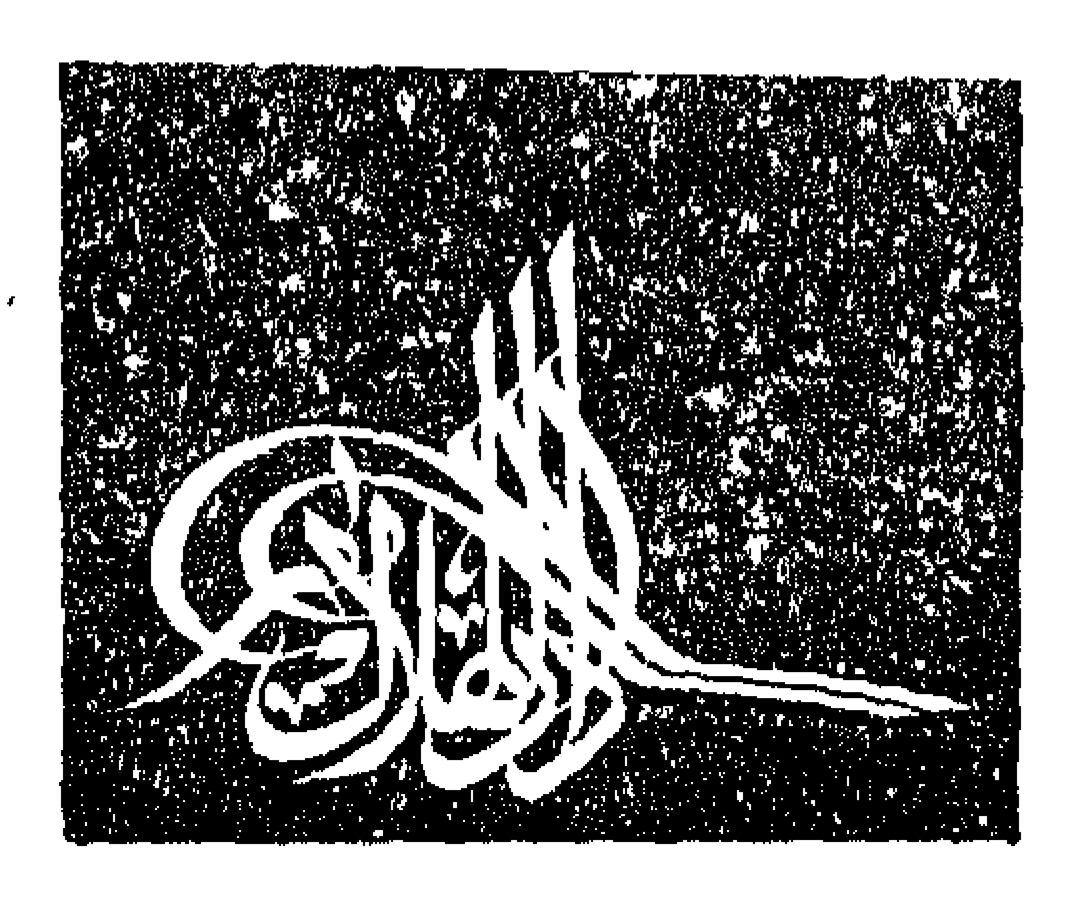
FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES

Loly

PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.

لولى

شركة الإسكندرية للزيوت والصابون



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٤٦٨ ـ جمادى الاول ١٤١٠ ـ ديسمبر ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرش :

لبنان : ٧٠٠ ليرة ، الاردن : ٦٠٠ فلس ، الكويت : ٥٠٠ فلس ، العراق : ٢٥٠٠ فلس ، السعودية : ٧ ريالات ، البحرين : ١٢٠٠ فلس ، الدوحة : ٨ ريالات ، دبى : ٨ دراهم ، أبوظبي : ٨ دراهم ، مسقط : ٨٠٠ بيسة ، تونس : ١٦٥٠ مليما ، المغرب : ٢٠ درهما ، غزة والضفة : ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية : ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية : ٢ دولار ، ايطاليا : ٣٠٠٠ ليرة ، لندن : ٥٠ر١ جك .

الغلاف عن لوحة
للفنان : نبيه كامل

برنارد شو والإسلام

بقلم

محمود علي مراد

دار الهلال

مقدمة

منذ عشرين عاما ، أى فى عام ١٩٦٩ ، كلفت وزارة الاعلام الكويتية كاتب هذه السطور بترجمة عدد من مسرحيات برنارد شو وكتابة مقدمة لكل منها ثم كتابة مقدمة عامة عن المؤلف .

وترجمة اى كتاب من الكتب عملية تضطر المترجم الى قراءة الكتاب الذى يترجمه عدة مرات : فهو يقرأه مرة قبل الشروع فى الترجمة ومرة أثناء الترجمة ومرة بعد انتهاء الترجمة لمضاهاة النص الاصلى بالنص المترجم والتحقق من أن كل ما هو موجود فى الاصل موجود فى الترجمة ، ومرة لمراجعة الترجمة ومرة لصقل الاسلوب . واذا كان على المترجم أن يكتب النص بنفسه على الآلة الكاتبة فهذه قراءة أخرى . ثم لابد من مراجعة النص المكتوب على الآلة الكاتبة . واذا كان على المترجم أيضا ان يكتب مقدمة للكتاب فهو مضطر لقراءته مرتين أخريين على الأقل .

عشر مرات أو أكثر يقرأ فيها المترجم نص الكتاب قراءة متمعنة ، فضلا عن قراءة ما هو متاح من الكتب أو المراجع التى تناولت الكتاب بالدراسة أو النقد أو التعقيب اذا اقتضى الأمر كتابة مقدمة . ونتيجة هذا كله هى أن المترجم حين ينتهى من عمله يكون قد استظهر الكتاب تقريبا وعاش معه أسابيع أو شهورا وتكونت بينه وبين

موضوعه ـ بل بينه وبين مؤلفه وإن كان قد مات أو كان يعيش فى بلد بعيد ـ علاقة حميمة ، وأن يكون فهمه لمادة الكتاب ، بالضرورة ، أعمق وأكمل من فهم القارىء العادي أو من فهمه هو لو انه قرأه مرة أو مرتين .

ويحدث أحيانا ، من فرط قراءة المترجم للنص ومعايشته له ، أن يكتشف فى معانيه سرا أو أسرارا لم يكتشفها أحد من قبله ممن درسوا الكتاب ونقدوه أو كتبوا عنه . وقد يتضح فيما بعد أنه كان واهما فى ظنه ، أنه أساء فهم الكتاب ، أو أن غيره قد سبقه الى اكتشاف ما كان يعتقد انه سر . ولكنه ، الى ان يتضح له ذلك ، يعيش فى فرحة غامرة وكأنه عثر على كنز .

وقد حدث لكاتب هذه السطور مثل هذا وهو يترجم مسرحية « كانديدا » لبرنارد شو ، عام ١٩٧١ . والسر الذى خيل اليه أنه اكتشفه هو أن للمسرحية معنى خفيا يختلف تماما عن معناها الظاهر وأن هذا المعنى الخفى هو الذى كان يرمي اليه المؤلف من كتابة مسرحيته وهو الذى يتضمن فلسفة المؤلف الحقيقية . وقد جعله ذلك يقتنع بأن ما كتبه المؤلف شرحا لهذه المسرحية وتعليقا عليها مع التركيز على معناها الظاهر كان من قبيل التضليل والضحك على الذقون وأن برنارد شو يجد متعة خاصة فى اخفاء مقاصده البعيدة وطمس معالم الطريق التى تقود اليها وملء هذا الطريق بالحفر بحيث لا يصل القارىء الى هذه المقاصد الا بعد جهد جهيد .

وكتبت مقدمة للمسرحية أوضحت فيها وجهة نظرى . وقد فهمت منذ ذلك الوقت لماذا وصف المؤلف نفسه ذات مرة بأنه . . . كذاب !

وقد ترجمت بعد مسرحية « كانديدا » مسرحيات اخرى لشو وكتبت عنها مقدمات ، ومضيت فى الوقت ذاته اقرأ اعماله الكاملة واعيد قراءتها مرة بعد مرة . وقد أكدت لى قراءاتى لما كتبه « شو » وما كتبه عنه آخرون . التى لم أنقطع عنها طيلة هذه السنين . صحة اكتشافى القديم فى أن كثيرا من مسرحيات هذا المؤلف مسرحيات رمزية ذات معنيين .

كان هذا هو الاكتشاف الأول ولكنه لم يكن الاكتشاف الوحيد .

لقد قرأت فى بعض كتابات « شو » غير المسرحية ، وفى بعض المسرحيات ، عبارات قصيرة ومتفرقة يتحدث فيها عن محمد عليه الصلاة والسلام وعن الاسلام حديث المعجب الصديق . وانتهيت من تجميع هذه العبارات وتحليلها الى أن برنارد شو قد فهم روح الاسلام كدين اصلاحي عالمى فهما سليما وانه يكن لشخص رسوله الكريم تقديرا جما . وقد جرنى ذلك الى التساؤل : أليس من الجائز أن يكون هذا المؤلف قد عبر عن هذا الفهم وهذا التقدير فى مسرحياته أيضا بصورة غير ظاهرة ؟

وعكفت على هذه المسرحيات أقرأها من جديد منقبا عن معانيها الخفية . وهنا حدث الاكتشاف الثانى ، فقد وجدت أن برنارد شو قد تحدث عن محمد (ص) وعن الاسلام بالفعل فى عدد غير قليل من هذه المسرحيات بطريقة الرمز وأن ما قاله عنهما فيها ـ اذا صدق نظرى ـ أعمق واكثر وأوسع أبعادا بكثير مما قاله فى المقدمات والأعمال غير المسرحية .

كان هذا هو الاكتشاف الثانى وهو اكتشاف عظيم

الشأن فان أصدقاء الاسلام في الغرب وفي العـــالم عموما قليلون وبرنارد شو واحد منهم بل هو ، في اعتقادي ، واحد من أبرزهم .

وقد عرضت مجمل افكاري في هذا الخصوص على نفر من أصدقائي فتشكك فيها البعض واقرها البعض الآخر . واقترح على احد هؤلاء ان أكتب ما عندي منها على أساس أن البحث في حد ذاته مفيد ، حتى اذا لم أفلح في اقناع جميع الناس أو معظم الناس بنظريتي في فهم مسرحيات هذا المؤلف الكبير . واتصل هذا الصديق من تلقاء نفســه بدار الهلال ومهد لي السبيل لديها فقبلت الدار مشكورة أن تنشر لي في مجلة الهلال سلسلة من المقالات عن موضوع « برناردشو والاسلام » . ونشرت لي الدار بالفعــل أربع مقالات عن هذا الموضوع . وكان في نيتي أن أخصص بعد هذه المقالات مقالا لكل مسرحية من المسرحيـــات التي تعرض فيها مؤلفنا للاسلام أو لنبيه عليه الصلوات ، وبدأت بالفعل في كتابة مقال عن مسرحيــــة « قيصر وكليوباترة » ، واذا بنواحي الموضوع تتشعب أمامي واذا بالمقال يصبح بحثا طويلا .

وبعد ، ونحن لا زلنا في أول الطريق فان موضـــــوع برنارد شو والاسلام موضوع طويل يحتاج الى عدة اجزاء في حجم هذا الكتاب .

جنيف في ٢٣ يوليو ١٩٨٩

محمود علي مراد

الاسلام وبرنارد شو

الذين كتبوا عن الاسلام ورسوله الكريم فى الغرب فئتان : فئة المستشرقين ممن تخصصوا فى الدراسات الاسلامية ، وفئة الأدباء والفلاسفة والمفكرين من غير المتخصصين . وكان برنارد شو من هذه الفئة الأخيرة .

وقد تباينت درجة اهتمام الكتاب من غير المستشرقين بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فأفرد له بعضهم فصلا أو كتابا بينما لم يتعرض له البعض الآخر الا بصورة عابرة .

كذلك اختلفت آراء هؤلاء الكتاب فى نبينا عليه السلام وفى دينه فمدحهما البعض وذمهما البعض الآخر وجمع آخرون بين المدح والذم فى حقهما . وكان عدد من ذمهما اكبر من عدد من مدحهما . وكان هذا طبيعيا لأسباب عدة منها العداء التقليدى للاسلام فى نفوس الناس فى الغرب . وهو عداء يرجع الى أيام الحروب الصليبية بل الى ماقبل هذه الحروب . ومنها حقيقة أن الغرب قد غزا فى العصور الحديثة معظم البلاد الاسلامية وبلادا كالهند فيها عشرات الملايين من المسلمين . والمنتصر عادة يكره المهزوم ويحتقره ويتعالى عليه . ومن هذه الاسباب أخيرا ما وصل اليه العالم الاسلامى ـ أو الجانب الأكبر منه ـ فى القرون الأخيرة من تخلف وضعف وانحطاط .

هم اذن يحكمون على الاسلام من منطلقين : منطلق عقائدهم ، سواء كانوا نصارى او يهودا أو ممن لا يؤمنون بديانة سماوية ـ وهؤلاء فى الغرب كثيرون ـ ومن منطلق واقع المسلمين واحوالهم .

وقد أضيف الى هذين المنطلقين منطلق ثالث هو ما يسمى « بالخطر الاسلامى » ولكن ذلك موضوع آخر لا يدخل فى نطاق حديثنا عن برنارد شو .

وبرناردشو : هل كان من المادحين أم من القادحين ؟

الجواب ، باختصار ، انه كان ممن اهتموا كثيرا بالاسلام وبشخصية النبى صلوات الله عليه ، بصفة خاصة . وكان ممن فهموه وفهموا أبعاد رسالته . وممن أعجبوا به واحبوه واجلوه ، وانه بلغ من ذلك مبلغا يجعل القارىء الذى سبر أغواره ولم تنطل عليه حيلة فى اخفاء مقاصدم يتساءل أحيانا : أمن المعقول أن يكون كاتب هذا الكلام غير مسلم ؟

ولكن هذا هو الواقع : برناردشو ، رغم اجلاله لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ومحبته له ، لم يقل أنه مسلم .

كذلك فانه ، رغم آجلاله للسيد المسيح ومحبته له ، لم يقل انه مسيحى .

وهو فى الوقت ذاته لم يكن ملحدا بمعنى الالحاد المعروف . لقد كتب كتابات كثيرة عن عقيدته واختلف الباحثون فى تأويل هذه الكتابات .. ولكن الحاصل أن عقيدته فى عمومياتها واسسها اقرب الى الايمان منها الى الكفر وأن يكن ايمانه ايمانا من نوع خاص وبمفهوم خاص وبمسميات خاصة . ومفهوم يتفق مع مفاهيمنا ـ مسلمين

أو مسيحيين — عن الدين أحيانا ويختلف عنها أحيـــانا أخرى .

وهو بالاضافة الى ذلك يرى أن القدرة الخالقة لم تكتف بارسال الانبياء الى الناس بل ارسلت اليهم مصلحين آخرين يقومون بدور كدور الانبياء ويتممون هذا الدور . مصلحين وظيفتهم اصلاح مفاهيم العوام للديانة . فالعوام فى رأيه — أيا كانت ديانتهم — لا يفهمون الـدين فهمـه الصحيح . وهم ينحون به على مر العصور منحى يخالف طبيعته الأصلية وينحرفون بمبادئه وأحكامه عن وجهتها الصحيحة الى وجهة قد تتناقض مع الوجهة الصحيحة على خط مستقيم .

ولم يكتب برناردشو عن الاسلام أو عن محمد (صلى الله عليه وسلم) كتابا أو فصولا أو مقالات أو حتى فصلا أو مقالا واحدا متصلا ، وانما هى شذرات متفرقة فى عديد من مسرحياته وفى مقدمات بعض المسرحيات . سطر هنا وكلمة هناك . عبارة ترد على لسان شخصية من الشخصيات أو ذكر لأسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ضمن أسماء شخصيات أخرى : اشارات عابرة فى مجموع أعماله لو جمعت لما تجاوزت صفحات قليلة .

ومع ذلك فان محمدا (صلى الله عليه وسلم) موجود فى كل مكان فى عالم برناردشو . موجود فى الظاهر او فى الخلفية . وموجود بالرمز فى عدد من الشخصيات التى بنيت حولها بعض مسرحياته .

لقد ذكر برناردشو مرة أنه فكر فى كتابة مسرحيـــة عن محمد ولكنه عدل عن تنفيذ هذه الفكرة حين قيل له ان ذلك قد يغضب تركيا (التى كانت حليفة لانجلترا فى

ذلك الوقت) وأن الرقيب سيمنع عرض المسرحية ان هو كتبها .

عدل « شو » اذن عن تأليف مسرحية عن محمد ولكنه لم يعدل عن ابداء اعجابه به طولا وعرضا في أعماله . فعل ذلك بوسائل مختلفة بعضها صريح ومباشر وبعضها خفى يحتاج ادراكه الى بحث طويل .

وقد أهتدينا من طول القراءة والتأمل فى كتابات « شو » الى حل بعض الالغاز التى تعمد ـ لسبب ما ـ أن يغلف فيها وصفه لمحمد أو آراءه فيه ، وأعيانا حل بعضها الآخر . ولكن ما حللناه منها أقنعنا بأن برناردشو كان فى بداية حياته مفتونا بشخصية محمد وأنه ظل مفتونا بها الى آخر عمره الطويل ، وان كل قراءاته الموسوعية وكل تجارب حياته واطلاعه على مختلف فروع العلم ومتابعته لأحوال العالم وانفعاله بها لم تغير من شعوره نحو شخص الرسول بل زادته اجلالا له واعجابا به .

وسنحاول فى هذا البحث أن نجمع شتات بعض ما تفرق من اشارات « شو » الصريحة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وأن نحلل هذه الاشارات ونضعها فى مواضعها . وستكون هذه هى القاعدة التى ننطلق منها الى المرحلة الثانية أى مرحلة الاستكشاف . والمسألة هنا محتاجة الى توضيح :

ان لبعض مسرحيات برناردشو معنيين : معنى ظاهر واضح ومعنى باطن خفى . ولعل أقرب وصف لهذه المسرحيات انها أشبه بجبل الجليد العائم : . الوجه الظاهر فيها هو قمة الجبل التى تطفو على السطح أما الوجه الباطن فهو قاعدته التى لا يراها الناس .

وهذه حقيقة لم يتبينها معظم قراء « شو » وجمهور مسرحياته ، كما لم يتبينها معظم نقاده ، بل أن الجميع تقريبا يقفون عند الاحداث الظاهرة لمسرحياته المذكورة لا يرون منها الا وجهها الضاحك الساخر المسلى . أما وجهها الآخر فان أحدا لم يقف عنده ، أو وقف عنده بعض النقاد ولكن دون أن ينفذوا الى أعماقه ، هذا رغم أن برناردشو كان يعطى فى هذه المسرحيات جملة من الاشارات تسمح ، ولو بصورة تقريبية ، بفهم ما يومىء اليه .

هذا الوجه الباطن الخفى هو الذى سنحاول اكتشافه ليكتمل عرضنا لنظرة برناردشو الى شخصية الرسول صلوات الله عليه والى الاسلام .

وسيتناول بحثنا كذلك عرضا لعدد من آراء « شو » الخاصة فى بعض المسائل الاجتماعية والاقتصادية والانسانية الهامة . وسنقارن هذه الآراء بنظيرها فى الاسلام وسيرى القارىء أن هناك شبها ملفتا للنظر فى شأنها بين آراء هذا الكتاب ومبادىء الاسلام الحنيف .

ونستطيع أن نقول بصفة مبدئية أن الأمور التى جعلت برناردشو يعجب بشخصية النبى العربى هى كره الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأشياء يكرهها هو واتفاق مذهبه صلوات الله عليه فى الاصلاح مع مذهبه .

هو مثلا كان يكره أخلاق المجتمع الغربى وما فيها من نفاق وأنانية وقسوة ومادية ، وكان يجد صدى لذلك عند محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وكان يكره الطريقة التى يفهم بها الغرب المسيحى رسالة المسيح عليه السلام ويستخدم بها الديانة المسيحية

لخدمة اغراض لا تمت الى المسيحية بسبب ، وكان يشارك فهم محمد للمسيح باعتباره نبيا لا الها .

وكان يكره استعباد المال للناس ويحب الاشتراكية ـ واشتراكية السيد المسيح بوجه خاص ـ وكان يرى فى دين محمد عليه السلام تأييدا لمذهبه فى ذلك .

كان برناردشو ، فى كلمة ، يرى أن نهجه فى الاصلاح قريب الشبه بنهج محمد ، الذى هو استمرار لنهج المسيح . لذلك كان يدافع عنه ويبطل حجة من يقولون بوجود عداء عضوى بين الاسلام والمسيحية ويرد على من يحاولون الطعن فى محمد بانتقاد تعدد زوجاته وكونه قد حارب بالسيف ولم يكتف ـ كالمسيح ـ بالدعوة باللسان .

هل معنى هذا أن « شو » كان راضيا عن فهم المسلمين لدينهم وعن طريقة تطبيقهم لاحكامه ؟

الذى يتضح من بعض كتاباته أنه لم يكن راضيا عنها وانه لو تعرض للاسلام الشعبى لنقده نقدا شبيها بنقده لما كان يسميه بالمسيحية الشعبية . ولكنه لم يفعل ذلك ولم يبد رايه فى أحوال المسلمين الا فى مواضع قليلة وبصورة سريعة .

لماذا ؟

من الجائز ان يكون قد احجم عن نقد المسلمين لنفس السبب الذى منعه من كتابة مسرحية عن محمد اى لكى لا يثير حفيظة تركيا ولان هذا النقد قد يغضب المسلمين الذين يعيشون فى الهند وفى المستعمرات البريطانية المترامية الأطراف وفى غيرها من البلاد . ولكننا نستبعد هذا الاحتمال فان شو اذا أراد أن يقول شيئا يرى من واجبه كرجل فكر أن يقوله لم يكن فى مقدور قوة فى الارض

ان تمنعه من قوله . وهو لم يكن يتورع عن نقد الحكومة البريطانية ذاتها والشعب البريطاني والكنيسة البريطانية، بل وعن نقد الرقيب نفسه فى مواطن ومناسبات مشهودة . ولم تكن شجاعته الأدبية تخونه حتى فى أحلك الأوقات وحتى اذا اضطره الأمر الى الوقوف فى وجه أفكار تعتبر من المقدسات التى لا تمس او فى وجه شعور وطنى أو شعبى عارم . وكانت حياته الأدبية كلها سلسلة متصلة من الحملات يشنها على الأسس والتقاليد التى كان يقوم عليها المجتمع البريطانى والمجتمع الغربى عامة . وكان من المفكرين القلائل الذين عارضوا دخول بريطانيا الحرب ضد المانيا واصابه من ذلك أذى كبير ، فطرد من النوادى التى كان عضوا فيها واتهم بالخيانة وتخلى عنه الاصدقاء وقاطعه الناشرون والقراء .

وقد راينا ، وسنرى بالتفصيل ، انه استطاع أن يتحايل على الحظر المتعلق بكتابة مسرحية عن محمد وانه قال كل ما اراد أن يقوله بشأنه مع ذكر اسمه صلوات الله عليه احيانا ومع اغفال هذا الاسم الكريم احيانا اخرى . وكان باستطاعته أن ينحو نفس هذا النحو فيما يتعلق بالمسلمين فى القرن الذى يعيش فيه أو فى العصور السابقة ، ولكنه لم يفعل .

والاحتمال الثانى الذى جعل برناردشو يمسك عن نقد المسلمين فى حاضرهم وماضيهم هو عطفه على المظلوم . لقد كان هذا الكاتب يعطف على المسلمين كما كان يعطف على غيرهم من الشعوب المقهورة المستعمرة . وكان يرى انهم ــ مهما كانت سيئاتهم ــ مجنى عليهم لا جناة ، وأن الجانى الحقيقى هو الغرب وبريطانيا بوجه خاص ، وأنه

اذا كان هناك من يجب نقده وتجريحه ، فهـــو الجانى لا المجني عليه .».

ولعله رأى كذلك أن أعداء الاسلام ـ بالحق وبالباطل ـ فى أوروبا وانجلترا كثيرون وانهم ليسوا بحاجة الى عدو جديد له . وخشي أن يؤدى نقده الى زيادة طغيان الطغاة أو جعلهم يلتمسون لأنفسهم الأعذار .

ومن الجائز أيضا أن يكون فهمه لمهمته هـو الـذى منعه من نقد المسلمين . لقد كان يرى أن مهمـة الكاتب والمفكر هى الاصلاح أولا واخرا ، ولم يكن من المؤمنين بمذهب « الفن للفن » بل كان يهاجم هذا المذهب ويسخر من أتباعه . وكان يرى نفسـه قبل كل شىء داعية لا مؤرخا ولا عالما اجتماعيا . وكانت وسيلته الى الاصلاح هى نقد الأوضاع والأفكار والمعتقدات والتقاليد التى يرى أنهـا تسبب الضرر والشر للناس . وكان ـ كأى مصلح ـ يكتب لجمهوره المباشر اى ، فى المقام الأول ، لقومه وبنى جلدته، وهو حين كان يهاجم المسيحية الشعبية مثلا انما كان يفعل ذلك أستنادا الى ما كان يشاهده ويقرؤه ويعرفه وما كان يشاهده ويقرؤه ويعرفه من يكتب لهم .. اما المسلمون فلم يكونوا جمهوره المباشر ولذلك لم يطل الحديث عنهم . ولم يكن هذا شأنه بالنسبة للمسلمين وحدهم ، فهو لم يكتب مثلا الا فى اشارات عاجلة عن الأوضاع فى آمريكا أو فى فرنسا أو فى المانيا او فى غيرها من دول الغرب العظمى كما لم يكتب عن أكثر دول العالم الأخرى بل ركز على عالمه القريب وعلى العصر الذى كان يعيش فيه .

ويلاحظ هنا أن « شو » كان على كل حال يفضـــل أن يذكر محاسن المسلمين على ان يذكر سيئاتهم . وكان يفضل الدفاع عنهم على الهجوم عليهم . وكان له مثلا موقف

مشهور في قضية دنشواى المصرية ، وقال في وصف ظلم المحتل البريطاني المتمثل في هــذه القضية كل ما قاله المصريون بل واكثر مما قالوه فقد كانت ظروف الاحتــلال تمنع الاقلام المصرية من التعبير الحر وتحد حتى من حرية المحامين الذين ترافعوا من اهل دنشواى للمحاكمة في هذه القضية التاريخية .

واغلب الظن ان برناردشو راى ان اسلام عصره من شأن المسلمين وانه اذا كان ثمة أوجه نقد تتعلق بحاضرهم فكتابهم وفلاسفتهم واولو الرأى فيهم هم الذين تقــــع على عاتقهم مهمة الوقوف عندها وتقصى طرق الاصــلاح الكفيلة بمعالجتها « واعادة اكتشــــاف » مثلهم الأعلى كوسيلة لهذا الاصلاح . والحاصل أن الفترة التى بــدأ « شو » يكتب فيها عن الرسول كانت تعــاصر الفترة التي قطعت فيها حركة الاصلاح الديني في مصر على يد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده شـــوطا غير قصير .

لقد كان فضل برناردشو في ادراك عظمة الاســـلام وعظمة نبيه الكريم كبيرا ، فقد اهتدى الى نواحى العظمة فيهما وتصدى للدفاع عنهما في وقت كان الجانب الأكبر من العالم العربى والاسلامى فيه مستعمرا أو محتلا قـد تسلطت عليه بالقهر والاستغلال اكثر من دولة من الدول الغربية . ولم تحجب هزيمة المسلمين وظاهر ضـــعفهم أمام الغرب حقيقة الاسلام عنه كما حجبتهـــا عن غالبية كتاب الغرب ومستشرقيه بل كان ، شأنه في ذلك شـــأن جوته والشاعر شيلى وكارليل وغيرهم والى مدى أبعد ، ممن اكتشفوا امكانيات هذا الدين باعتباره رسالة عظمى تهدف الى اصلاح حال الانسانية كلها والى علاج ادوائها الرئيسية .

كيف تحايل « شو »
على الرقابة والقراء

كان برناردشو يرى ان الكتابة عن الانبياء اهم عند الكاتب المسرحي وأفيد من الكتابة عن الغزاة والفاتحين .

وقد ذكر في مقدمة مسرحيته « انكشاف بلاسكو بوزينت » ان فكرة تاليف مسرحية عن حياة محمد — صلى الله عليه وسلم — الحت عليه زمنا طويلا وانه لم ينفذها مع ذلك خشية أن يحتج السفير التركي عليها وأن يحمل ذلك الرقيب على النصوص المسرحية على منع عرضها .

وهاجم « شو » في الوقت ذاته الرقابة وقال أن منع عرض مثل هذه المسرحية أمر غير مفهوم وفي المكتبات ترجمات للقرآن وصف محمد في مقدماتها بأنه « دجال » كما وصف في المؤلفات القديمة بأنه « كلب » أو « شيطان »

والراجح لدينا أن خوف الرقابة لم يكن العامل الوحيد الذي جعل مؤلفنا يعدل عن فكرة كتابة مسرحية عن محمد — صلى الله عليه وسلم — وانما كانت هناك اعتبارات أخرى مثل احترامه لمشاعر المسلمين الذين يكرهون أن يظهر نبيهم كبطل او شخصية في مسرحية حتى اذا لم يكن فيها تجريح له واذا كان مؤلفها لا يبغي من كتابتها سوى الاشادة به والثناء عليه .

ومن الجائز أيضا أن يكون « شو » قد خشي أن يصدم مشاعر الشعب الانجليزي وهذا هو الاحتمال الأكبر .

ان الانجليز على استعداد دائم لسماع أى نقد يوجه اليهم لا سيما اذا كان صادرا من الداخل اى من كاتب انجليزى . وقد سمعوا وقرءوا من نقد برناردشو لهم ومن سخريته بهم الوانا واشكالا . سمعوها وقرءوها ولم يغضبوا . ولم يمنعهم اصرار المؤلف على تأكيد انه ايرلندى (رغم ان ايرلندا فى ذلك الوقت كانت تابعة للتاج البريطانى) وليس انجليزيا من تقبل نقده بصدر رحب ومن الاقبال على قراءة كتاباته وحضور مسرحياته والضحك والقهقهة على انفسهم حين يبرز عيوبهم ومساوئهم باسلوبه الفكه ونكته اللاذعة . ومن امثلة ذلك انه كتب مسرحية « جزيرة جون بول الأخرى » فى نقد الانجليز من وجهة نظر الايرلنديين بفكرة عرضها فى مسرح ايرلندى لكى يضحك الجمهور الايرلندى على الانجليز . ولكن الظروف حالت قيام الفرقة الايرلندية التى كان من المفروض ان تمثل المسرحية بعرضها وعرضت المسرحية بدلا من ذلك فى لندن . ونجحت لدى الجمهور الانجليزى نجاحا تجاريا منقطع النظير كان اول من فوجىء به هو برناردشو . ومن امثلته ايضا انهم كانوا يضحكون ملء أشداقهم من طريقة مؤلفنا فى اقحام شخصية أو شخصيات انجليزية فى مسرحياته ، سواء كان موضوعها يسمح بوجود هذه الشخصية أو لا يسمح ، كما فعل فى مسرحية قيصر وكليوباترة ، لا لشىء الا للتعريض بالانجليز والسخرية منهم .

ولكن هناك أشياء لا يستسيغها الانجليز رغم تقاليدهم الديمقراطية التى تكفل حرية الرأى وحرية التعبير ورغم طبيعتهم المرحة التى تقبل الفكاهة حتى على حساب انفسهم . ومن هذه الاشياء ان يأتى كاتب كبرناردشو . فى

وقت اجمعت فيه الأمة امرها على الدخول فى حرب ضد المانيا سنة ١٩١٤ ويقول ان الأسباب التى يستند اليهما هذا القرار خاطئة وان الالمان ليسوا - بالمقارنة بالانجليز - شعبا مجرما باغيا كما تصوره وسائل الاعلام البريطانية.

ومنها ان يحدثهم احد عن الاسلام أو عن نبيه حديث المعجب المفتون .

ان لدى الانجليز والغربيين بصفة عامة حساسية خاصة فيما يتعلق بالاسلام تجعلهم لا يطيقون كثيرا أن يذكر الاسلام ونبيه أمامهم بخير . وحساسيتهم حيال هذا الدين الذى كانت دوله ضعيفة مهيضة الجناح أو كانت خاضعة لهم أكبر من حساسيتهم حيال الالمان . فالالمان - مهما يكن من أمر - أقوياء ، وهم غربيون مثلهم ومسيحيون مثلهم وأصل حضارتهم وأركانها هى أصل وأركان حضارة الانجليز .

والناس فى الغرب لا تمانع فى سماع الحديث عن محاسن الحضارة العربية فى عصورها الذهبية أيام العباسيين وفى اسبانيا مثلا . ولكنهم لا يصبرون كثيرا على الاستماع الى من يتحدث عن عظمة الاسلام باعتباره نظاما انسانيا له قيمته حتى فى مواجهة الحضارة الغربية المنتصرة ، أو من يقول أن هزيمة العالم الاسلامى أمام التفوق الحربى والحضارى لدول الغرب وروسيا لا يغض من قدره كدين ونظام انسانى .

هذا حديث تمجه أذواق معظم الناس فى الغرب ويصدم معتقداتهم الاصيلة فهم يفضلون البقاء على آرائهم بشأن الاسلام لأنها مريحة ، ولأنها تبدو لهم منطقية ، وأخيرا لأنهم قد تعلموها ونشأوا عليها منذ نعومة أظافرهم وورثوها عن آبائهم وأجدادهم .

فالاسلام دين متاخر بدليل ضعف دوله وتاخر شعوبه .

وهو دين حرب وسيف بدليل حروبه العديدة مع العالم المسيحي واستيلاء المسلمين على بلاد كثيرة كانت في يد المسيحيين .

وهو دين همجي بدليل انه يقر نظام الرق وان النخاسة في افريقيا كانوا من العرب .

ورسوله كان رجلا شهوانيا له حريم كثير من الزوجات والاماء .

وكان في الحرب مقاتلا متعطشا لسفك الدماء لا يراعى الا ولا ذمة ولا يحترم قواعد الحرب في معاملة الاسرى ولا تاخذه بعدوه شفقة ولا رحمة .

وكان يؤلف كلاما من هندياته أو ينقله عن غيره ، ثم يدعى أنه موحى اليه من الله عن طريق ملك من ملائكة السماء .

ودينه — على احسن الفروض — كان دينا أن صلح لبنى قومه من العرب في شبه الجزيرة لا يصلح لشعوب اخرى تختلف عن عرب الجزيرة في الظروف ، كما لا يصلح خارج زمانه .

وكان برناردشو يخالف هذا كله . واغلب الظن أنه حين فكر في تاليف مسرحية عن محمد صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يتخذ منها وسيلة لتصحيح هذه الافكار الخاطئة : احقاقا للحق ، من ناحية ، ورفعا ، من الناحية الأخرى ، للحواجز النفسية التى تحول دون نهل الغرب من مناهل الاسلام فيما يساعد على اصلاح ما فسد من احواله واحوال الناس في كل مكان وانقاذ العالم من المصير

الذى كان « شو » يرى أنه منحدر اليه لا محالة ان استمر فى ادارة ظهره للحلول التى أتت بها الديانات .

ولكن « شو » وجد بلا ريب أن القارىء الانجليـزى ليس فى حالة نفسية وذهنية تسمح له بتلقى هذا الدرس والاستفادة منه اذا ألقى عليه دفعة واحدة بهذه الصـورة الصريحة المباشرة .

ان برناردشو ليس بالكاتب الذى يسمح لشىء بأن يثنيه عن كتابة ما يرى ان واجبه كمفكر يحتم عليـه ان يكتبه ، كما أنه ليس بالكاتب الذى يسير وراء القـارىء ولا يقدم له الا ما يستمرئه ويستسيغه . لقد كان يرى أن مهمة الكاتب هى ايقاظ النيام وهز دعائم المجتمـع الفاسدة وتحطيم الافكار الخاطئة ومواجهة الناس بعيوبهم ولذلك فان الصمت عن آرائه ، مهما كانت الأسباب ، خيانة لرسالة الكاتب واقرار بالعجز لم يكن يرتضيهما لنفسه .

وطريقة التحايل التى اختارها برناردشو هى الرمزية بمعناها الواسع . وقد اسـتخدم هذه الطـريقة التى استخدمها قبله الكاتب المسرحى النرويجى « ابسن » — الذى كان لشو فضل تعريف الجمهور الانجليـزى به — والتى لها كذلك جـذور قديمة فى الآداب الاوروبية ، فى عديد من مسرحياته للتحدث عن محمد وعن الاسـلام مع أحداث أقل قدر من النفور والانزعاج لدى القـارىء الانجليزى .

وتتمثل الرمزية التى استخدمها « شو » فى أنه كان يخفى وراء المعنى الظاهر للمسرحية أو لاشخاصها معنى باطنا ويترك لحصافة القارىء ومشاهد المسرحية وللنقاد

ان يفهموا الرمز والمعنى المستتر ويكتشفوا ما تعمدالكاتب اخفاءه .

ورمزية « شو » أحيانا صعبة الحل لأنها تتضمن احالة الى أعمال أو كتابات أو شخصيات أو أحداث يصعب على من لم يعرفها او يطلع عليها أن يفهمها وقد ترتب على ذلك غموض كالغموض الذى يشوب أحيانا بعض كتابات « ابسن » ولهذا ولكى لا يترك برنارد شو القارىء فى الظلام . فقد زوده فى كل مسرحية تلعب فيها الرمزية دورا مهما بعدد من « المفاتيح » التى تيسر له ، واذا بذل ما يلزم من جهد ، عملية الاهتداء الى المعنى الذى يرمى اليه من كتابة المسرحية ، أى معناها الباطن .

مم تتكون هذه « المفاتيح » ؟

هى تتكون أولا من فلسفة برناردشو العامة فيما يتعلق بالاسلام ونبيه الكريم وبالسيد المسيح ، وهى فلسفة لا تتضح معالمها وأبعادها الا بالاطلاع على جملة أعماله من مقدمات ومسرحيات وكتابات أخرى ، وربط دلالاتها ببعضها البعض والمقارنة بينها ، ومحاولة التوصل الى الأسس والمبادىء التى تهيمن على فكر المؤلف والتى يصدر عنها فيما يكتب .

وهى تتكون ثانيا من أشياء فى المعنى الظاهر للمسرحية تبدو ، بشىء من التعمق ، مفتعلة أو غير معقولة أوتخالف المألوف مخالفة صارخة . لقد حاول المؤلف فى مسرحياته الرمزية ، كما هو طبيعى ، أن يجعل المعنيين الظاهر والباطن مقنعين . بحيث لا يحس القارىء والمتفرج ، الذى لا يخرج من المسرحية الا بمعناها الظاهر ، بأن فيها شيئا

ناقصا أو غير مقبول ، وبحيث لا يحس القارىء والمتفرج المتعمق فى الوقت ذاته بأن فلسفة المسرحية لا تقف على قدميها . وقد نجح برناردشو فى حالات كثيرة ، لا سيما متى كانت درجة الرمزية فى المسرحية مخففة ، فى التوفيق بين المعنى والمعنى الباطن بصورة تجعل كلا منهما يكاد يستغنى تماما عن الآخر لأن دعامات المسرحية من شخصيات واحداث تصلح لكل منهما بنفس الدرجة . ولكن هذه الدعامات تبدو أحيانا ضعيفة فيما يتعلق بالمعنى الظاهر حين تزيد درجة الرمزية ويضطر المؤلف الى التضحية الى حد ما بالمعنى الظاهر انقاذا للمعنى الباطن .

وتتكون « المفاتيح » ثالثا من اشارات خاصة تتعلق بكل مسرحية وترد عادة فى المقدمات . والفكرة السائدة عن مسرحيات « شو » هى أن المؤلف يشرح معناها ويحل ألغازها فى المقدمات التى يكتبها عن كل منها (وهى مقدمات طويلة فى العادة بل يفوق طولها طول المسرحيات ذاتها أحيانا) . وهذا صحيح فى بعض الحالات ولكن الذى اتضح لنا من كثرة القراءة والتأمل فى مسرحيات برناردشو أنه ليس صحيحا فى جميع الحالات . فقد يحدث ألا يتعرض المؤلف فى المقدمة الا لمعنى المسرحية الظاهر وأن يمعن فى التعمية والتضليل فيبعد القارىء عمدا عن الوجهة الصحيحة فى تفسير المسرحية وهو يتظاهر بأنه يقوده اليها . وهو فى هذه الحالات يكذب على القارىء مرتين حين يوهمه ان للمسرحية معنى واحدا لا غير هو المعنى الظاهر : مرة فى المسرحية ذاتها ومرة فى مقدمتها اما المفتاح الحقيقى لباب المعنى الخفى فهو

موجود فى مكان آخر غير مقدمة المسرحية وهـو ، فى الغالب ، مقدمة مسرحية اخرى .

ويتمثل المفتاح أحيانا فى الأسماء التى يطلقها المؤلف على أشخاص مسرحياته . والمدقق فى هذه الأسـماء يكتشف أن هناك ، فى حالات كثيرة ، صلة وثيقة بين اسم الشخص وبين الدور الذى يلعبه فى المعنى الخفى .

وهو يتمثل احيانا فى عبارة ترد فى الحوار . واحيانا فيما يسمى « بالتوجيهات المسرحية » اى التعليمـات التى يعطيها المؤلف للمخرج فى اول الفصل او المشـهد او عند خروج ودخول بعض الأشـخاص . ليرتب على مقتضاها المنظر والأثاث والصور والتماثيل والمقـاعد وزى الممثلين وهيئتهم الخ . وقد اعتاد « شو » أن يطيـل فى هذه التوجيهات اطالة غير مالوفة بين كتـاب المسرح وهو يضمنها أحيانا بعض الاشارات التى هى بمثـابة « مفاتيح » كان نجد فى مسرحية من المسرحيات ، وبغير مناسبة تقتضيها الأحداث أو يتطلبها زمانها أو مكانها ، « رجلا تركيا » أو « رجلا يرتدى زيا عربيا » أو « جمالا » أو « تمرا ياكله الأهالى » أو « اثاثا شرقيا فاخرا » . هذه الاشارات التى لا ينتبه اليها القارىء عادة لأنهـا قصيرة أو سريعة لا تتجاوز كلمة أو كلمات ، تبدو دخيلة على المنظر ، ولكنها فى الواقع آشارات مقصودة قصد بها المؤلف ان يلفت النظر من طرف خفى ، الى زاوية غير تلك التى ينظر اليها القارىء أو المشاهد .

والحيل التى استخدم فيها برناردشو الرمزية فى مسرحياته عديدة . وقد نتجت أولاها ــ كما تصورها ــ عن الموقف الذهنى التالى : الناس حين تصف شـخصا

اما أن تصفه وصفا مباشرا يتناول سماته الجسدية واخلاقه أو تصفه بشخص آخر يشبهه . الوصف المباشر اذن هو وصف الشخص ذاته أما الوصف بالشبه فهو ينصب على شخص آخر . وانا اريد أن أصف محمد في عظمته وأخلاقه ولكن الرقيب والقراء لا يقبلون أن أصفه وصفا مباشرا . اذن فلأصفه بالشبه . ونظرا الى أنه ليس هناك ، حسب علمي ، شخص يجمع نواحي عظمة محمد كلها فلأعالج كل ناحية منها على حدة ولأختر لها شخصية من الشخصيات التاريخية تشترك مع محمد فيها ولو بمقدار ولأصف هذه الشخصية للناس وعيني على محمد ، وبعد أن أفرغ من وصفي التفت اليهم وأقول : « أرأيتم هذا الشخص ؟ ان محمدا يشبهه في هذه الصفة » .

والشخصية الأولى هي شخصية فاتح ورجل دولة عظيم كان لا يلجأ الى الحرب الا اذا اعياه التوصل الى ما يريد بالوسائل السلمية .

والشخصية الثانية هي شخصية فتاة جعلت منها الكنيسة الكاثوليكية قديسة ، كانت تقول أنها تسمع أصواتا من عالم آخر تلقي اليها أوامر معينة . وكانت تحارب وتحرض على حرب اعداء بلدها .

والشخصية الثالثة هي شخصية ملك عظيم وله ولع كبير ولكن ولعه بهم لم يمنعه بالنهوض باعباء ملكه كأحسن ما يكون النهوض .

والذي أراده « شو » ـ حسب نظريتنا ـ من اختيار الشخصية الأولى هو الرد على من يتهمون محمدا بأنه رجل سيف يحب الحرب للحرب . والذي أراده من

اختيار الشخصية الثانية هو الرد على من يتهمون محمدا بالدجل لقوله انه يتلقى وحي ربه من جبريل ومن ينعون عليه أنه لم يكتف ــ كالمسيح ــ بالكلمة وسيلة لابلاغ دعوته . والذي أراده أخيرا من اختيار الشخصية الثالثة هو الرد على من يمايرونه بحب النساء .

اما الحيلة الثانية التى استخدم فيها برناردشو الرمزية فهى نفس الحيلة الأولى ولكن بمفهومها العكسى اى : وصف الشخص بالمقارنة بنقيضه . وقد وصف « شو » بموجب هذه الحيلة شخصية لفاتح يعظمه الكثيرون ويختبرونه عبقريا ولكنه هو يرى انها ليست من العظمة ولا من العبقرية فى شيء . كل ما فى الامر أن ظروفا خارجة عن ارادتها مهدت لها فرص النجاح وما كان يمكن أن تنجح بغيرها ، علما بأنها لم تكن تسعى الى غاية نبيلة وانها أضرت بالجنس البشرى وسببت للناس آلاما كثيرة بلا داع . وجعل المؤلف محمدا المقابل العكسى لهذه الشخصية .

والحيلة الثالثة التى لجأ اليها « شو » هى أن يصف الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام وصفا مباشرا يصور فيه جانبا من جوانب عظمته ولكن مع تغيير اسمه وهيئته ــ بل ودينه ــ وأن ينقله الى ظروف اقليمية وزمنية لا توحي على الاطلاق بأن الحديث انما ينصرف اليه .

والحيلة الرابعة هى أن يخلق فى احدى المسرحيات شخصية ترمز الى المسيحية حسب مفهومه ويجعلها تعيش فترة فى بلد اسلامي ويسجل ردود فعلها ويقارنها بردود فعل الشخصيات الأخرى .

والحيلة الخامسة هى أن يخلق شخصية رجل مسلم ويجمع بينها وبين شخصية نسائية ترمز اما الى مجموع

الديانات أو الى احداها . ويسجل ـ هنا أيضا ـ ردود فعل هذه الشخصية الاخيرة في اتصالاتها بالمسلم ويقارنها بردود فعلها مع باقي أشخاص المسرحية.

والحيلة السادسة هي أن يتصور أن مركز الامبراطورية البريطانية قد انتقل الى بلد اسلامي وأن الجزر البريطانية أصبحت بقدرة قادر مكانا يقطنه قوم امتدت أعمارهم حتى بلغت المئات وقد أكسبهم كبر السن رجاحة في العقل وحكمة لا تتوافران للبشر العاديين . ثم أن يعطينا في كلمات قليلة رأى بعض هؤلاء القوم في المسلمين وفي غيرهم .

هي اذن حيل عديدة توسل بها برناردشو لاخراج محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام من بيئتهما الطبيعية ونقلهما ـ بخيال الكاتب المسرحي ـ الى قلب العالم الغربي في أطر ومواقف مما يدخل في علم أو في ثقافة القارىء الغربي . وهدفه من ذلك التعريف بهما وجعل قارىء ومشاهد المسرحيات يألف ذكرهما في حديث كاتب يكن لهما من مشاعر الاعجاب والتوقير مالم يتعوده وذلك بصورة لا شعورية اذا كان لا يقف من المسرحيات الا عند معنا الظاهر ، أو بصورة شعورية واعية اذا اهتدى أو هداه أحد الي معناها الباطن واذا فطن الى أبعاد الشخصية المحمدية التي أراد المؤلف أن يلقى عليها الضوء .

والغريب في الأمر ان من اكتشفوا رمزية برناردشو فيما يتعلق بحديثه عن محمد بل وفي حديثه عن المسيح عليه السلام قليلون للغاية وقد عثرنا في قراءاتنا لنقد مسرحية من مسرحياته على كاتبين أحسا بهذه الرمزية ولكن احساسهم بها كان غامضا ينقصه التحديد . كذلك

فانهما لم يدركا ابعاد تأثر برناردشو بشخصية محمد وبدينه .

ومرجع ذلك فيما نرى هو جهل الغربيين بسيرة محمد الحقيقية وبجوانب العظمة التي تنبه اليها برناردشو في شخصه وفي الدين الذي بعث به . جهلهم أو سوء طويتهم . وقد يكون مرجعه أيضا أنهم قرءوا بعض أعماله دون بعضها الآخر أو انخدعوا بتضليله في مقدماته رغم أنه قال عن نفسه ذات مرة حين سئل أن يصف نفسه انه كذاب ، وكان المفروض الا يأخذوا أقواله في هذه المقدمات قضية مسلمة . أو انهم قرءوا مسرحية أو مسرحيات له لم يستخدم فيها الرمز ولم يكن لها معنى باطن . وقد يكون مرجع ذلك أخيرا أن فكاهة المؤلف وخفة روحه في الاحداث الظاهرة لمسرحياته قد استغرقت انتاههم كله وان حيله وأساليبه المختلفة في التمويه والتعمية قد أنطلت عليهم فلم يفطنوا الى معانيه الخفية .

ويلاحظ أخيرا ان برناردشو قد قرن في مقدماته اسم محمد صلى الله عليه وسلم بأسماء عدد من الشخصيات التاريخية والمعاصرة التي يعرفها القارىء الغربي . قرن اسمه صلى الله عليه وسلم باسم السيد المسيح وباسم جان دارك وبأسماء الأنبياء موسى وابراهيم وسليمان عليهم السلام وباسم قيصر وباسم هتلر وموسوليني وبأسماء غيرهم .

وكان تعليق « شو » في المناسبات المذكورة — على عادته — تعليقا مقتضبا للغاية لا يتجاوز كلمات قليلة . ولكن مغزى هذه التعليقات على قصرها كبير للسبب الذي ذكرناه . فقد كان الجمع بين شخصية الرسول

وكل شخصية من هذه الشخصيات وصفا غير مباشر لذاته ويلاحظ أيضا أن بعض الشخصيات التاريخية التى جمع برناردشو بين اسمها واسم النبى العربى فى المقدمات من الشخصيات التى بنى حولها بعض مسرحياته التى أشرنا اليها فى معرض الحديث عن الحيلة الأولى .

ولو أن شو كتب المسرحية التى كان يفكر فى كتابتها عن محمد واكتفى بها لما تسنى له أن يحقق من النتائج كل ما حققه من عملية « الالتفاف » الواسعة النطاق حول الرقابة والقراء الانجليز الذين يكرهون محمدا والاسلام أو يسيئون الظن بهما ولا يتحملون الحديث الطويل المتصل عن مناقبهما . هذه العملية التى ظل يقوم بها فى كتاباته على مدى عشرات السنين .

ملاحظات عامة على
مسرح « شو »

هناك عدد من الملاحظات يتعلق بعضها بفلسفة برناردشو وبعضها بآرائه وبعضها بالطريقة التى اختارها للتعبير عن هذه الآراء يحسن ان تكون ماثلة فى ذهن القارىء بصدد مسرحيات هذا المؤلف ، لا سيما تلك التى تعرض فيها للاسلام او لنبيه الكريم صلوات الله عليه . وقد أشرنا الى بعض تلك الملاحظات فى مقال « الاسلام وبرناردشو » ومقال « كيف تحايل برناردشو على الرقابة والقراء » ، ولكننا نرى أن الامر محتاج فى شأنها الى مزيد من التفصيل .

واولى هذه الملاحظات هى أن برناردشو لا يؤمن بمبدأ الفن للفن او الأدب للأدب ، بل هو من انصار الادب الهادف أى الأدب الذى يرمى الى الاصلاح . وكان يرى أن مسئوليته ومسئولية كل مفكر وكاتب أشبه بمسئولية الأنبياء . ولما كانت مسئولية الانبياء مسئولية عالمية فقد كان يرى أن مسئوليته هو أيضا مسئولية عالمية . وقد وجد « شو » ، بعد أن أطلع على أحوال العالم واستقرا تاريخه ، ان الأسس التى بنيت عليها علاقات الناس والأمم فاسدة تماما وانها اذا بقيت كما هى ستؤدى بالجنس البشرى الى هلاك محقق وأن الدول العظمى ــ والغرب بالذات ــ مسئولة عن هذا الوضع الى حد كبير. وكان يرى أنه لا أمل فى انقاذ البشرية الا اذا تحقق

شرطان : الاول هو اقتناع الامم المتحكمة فى مصير العالم بفساد هذه الاسس ، والثانى : هو ايجاد أسس سليمة تحل محلها . وكان يرى أن الكتاب والمفكرين هم الذين يقع عليهم الواجب الاكبر فى نقد الاوضاع الراهنة ثم فى اقتراح الحلول ، أى اقتراح دين يكون بمثابة الدواء للعلل التى تشكو منها الانسانية والتى ستعصف بها ان بقيت بغير علاج . وكان يرى ان جميع الطاقات الفكرية فى العالم يجب أن تعبأ لاكتشاف هذا الدين والتوعية بضرورته بالأولوية على ما عداه ، وأن أى جهد لا يخدم هذا الغرض جهد ضائع وأن مبدأ الفن للفن وتسخير الفن الأغراض الترفيه وقتل الوقت فيه تبديد للقوى واهدار للامكانيات وخيانة للعالم ، لذلك فان شو ، ولو أن مسرحه فى الظاهر مسرح فكاهة ، كان اذا كتب مسرحية لا يكتبها لتسلية الجمهور بل لتفتيح ذهنه واقناعه بشىء اقتنع هو به اما فى مجال تشخيص أمراض المجتمع البشرى او فى مجال اقتراح الحلول . وقد نبه « شو » فى كثير من كتاباته الى ان القارىء والمتفرج لا يجب أن يقف عند المعنى الظاهر أو الاحداث الظاهرة فى مسرحياته والى ضرورة الغوص بحثا عن الفلسفة والفكرة الاصلاحية التى تكمن وراء هذه المسرحيات . هو يطلب اذن من القارىء او المتفرج أن يربط دائما بين أحداث المسرحية ـ حتى اذا كانت تاريخية ترجع الى قرون مضت ـ وبين الاوضاع الراهنة ، وأن يفهم أن المؤلف اذا تحدث عن الماضى فانما يفعل ذلك لاستخلاص العبرة منه والاستفادة به لبناء المستقبل .

والملاحظة الثانية هى أن مسرح « شو » ليس مسرحا لكل جمهور بل هو مسرح للمثقفين بمعنى أن المسائل التى

يعالجها ليست فى متناول كل الناس ، وانه لابد لفهمها واستساغتها من ان يكون القارىء او المشاهد ذا حد أدنى من الثقافة في مجالات التاريخ والدين والاجتماع والاقتصاد والحضارة والسياسة المحلية والدولية . ومسرحيات مثل مسرحية « قيصر وكليوباتره » تفترض فى قارئها أن يكون ملما بالخلفية التاريخية التى تستند اليها وبسمات العصر الذى تدور فيه أحداثها ، كما تفترض ان يكون القارىء قد اطلع على الكتاب المقدس ودرس تاريخ المسيحية فى العالم الغربى فى عصوره المختلفة . والمؤلف يفترض فى قارئه أيضا ان يكون ذا ثقافة فلسفية وأدبية وعلمية وذا المام كاف بالتيارات الفكرية المعاصرة . لقد كان «شو» ، كما ذكرنا فى غير هذا المكان ، ذا ثقافة موسوعية فى معظم مجالات المعرفة رغم أنه لم يتلق العلم فى مدارس أو جامعات . والذى يقرأ مقدماته وأعماله غير المسرحية يدرك للفور أن معرفته فى هذه المجالات لم تكن معرفة سطحية بل كانت معرفة متعمقة تسمح له بمناقشة آراء ونظريات كبار المفكرين والعلماء المتخصصين مناقشة الخبير . وكانت ثقافته الواسعة هذه تنعكس على مسرحه بصورة تجعل من الصعب على القارىء محدود الثقافة أن يستكنه كل بواطنها وأسرارها . لذلك فهو ينبه القارىء كلما تناولت مسرحية من مسرحياته موضوعا متخصصا الى ضرورة توسيع معلوماته فى هذا الموضوع لكى يتمكن من الغوص الى جميع الاعماق التى طرقتها المسرحية والخروج من قراءاتها بالفائدة التى يرجوها له .

ذلك أن مسرح « شو » مسرح تعليمى فى المقام الاول هدف الكاتب منه هو اقتلاع افكار معينة من ذهن القارىء وزرع أفكار جديدة مكانها . وهو يرمى أيضا الى اقناع

باعادة النظر فى كثير من الآراء التي يعتبرها هو خاطئةوالتى ورثها القارىء ونشأعليها ، وفي الطريقة التي استقرت بها في وعيه ، وتعويده على مناقشة كل شيء بنفســـه وعدم التسليم تسليما أعمى بما تلقاه من معلومات فى المدرسة وخارجها وعن طريق وســائل الاعلام المختلفة ، وهــذا المجهود التعليمى يفترض لدى القارىء قاعدة أساسية من المعارف . وكان المؤلف يعيش مشاكل عصره وينفعل بها ، وكانت مسرحياته تمس هذه المشاكل فى الصميم ، وكان يريد لقارئه أن يعيشها بنفس الصورة وان يراها بنفس المنظار الذى يستخدمه هو .

ولهذه الأسباب جميعا ، ولاحتمال أن تكون معلومات بعض قراء العربية عن خلفية مسرحيات « شو » ، وهى خلفية غربية بالدرجة الأولى ، اقل من معلومات القارىء الغربى ، رأينا من المفيد فى دراسة هذه المسرحيــة ان نقدم لقارئنا ــ على ما فى ذلك من اطالة ــ المعلومات التى نتصور ان المؤلف قــد افتــرض توافــرها لدى قارىء المسرحية عن الحضارة الاغريقية وحــكم البطالسة وعن روما وقيصر .

والحقيقة الثالثة هى أن كل مسرحية من مسرحيات برناردشو ليست عملا قائما بذاته ، بل هى جزء من كل . فهذه المسرحيات يفسر بعضها بعضا ويكمل بعضها بعضا وكل منها تلقى أضواء من زاوية مختلفة على عدد من الأفكار الأساسية التى استخدمتها فى بثهــا وابرازها . ولذلك قال « شو » أن فهم مسرحياته لا يكفى فيه أن تقرأ كل منها على حده بل يقتضى ان تقرأ اعماله كاملة وأن تقرأ عدة مرات . وقد جعلنا ادراكنا لهذه الحقيقة والحقيقة السابقة لا نكتفى فى دراستنا بالاشارات الصريحة المتعلقة بمحمد والاسلام فى المسرحية موضع الدراسة ،

بل ان نستعين بالاشارات والايماءات المتعلقة بها والواردة في جميع اعمال المؤلف ، وان نهتدى بهذه الاشارات في كشف الحيل التى حاول المؤلف ان يستعملها لاخفاء غرضه وتبين علامات الطريق الموصل الى الغاية التى أراد أن يقود اليها القارىء .

والملاحظة الرابعة والأخيرة هي أن القارىء لابد أن تكون لديه فكرة عن الآراء الخاطئة المتعلقة برسول الاسلام عليه صلوات الله وبالاسلام كدين ، التي أراد برنارد شو ان يستأصلها من نفس القارىء الغربي ويزرع مكانها آراء جديدة هي آراءه هو . والآراء المذكورة هي تلك التى ترد في كتب المبشرين والمستشرقين والتى تنطوى على تجريح لنبى الاسلام بهدف الغض من قدره والتشكيك في نبوته وبث كراهيته هو ودينه في النفوس . وقد ألمحنا الى هذه الآراء في مقالنا « الاسلام وبرنارد شو » ، ولكن القارىء يستطيع أن يجد مزيدا من التفاصيل عنها في عدد من كتب السيرة التى ظهرت بالعربية ابتداء من ثلاثينات هذا القرن لا سيما كتاب الدكتور محمد لطفى جمعة بعنوان « ثورة الاسلام وبطل الانبياء » وكتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل وسنتعرض لبعض هذه الآراء في الموضع المناسب من هذا البحث .

محمد ﷺ فى مسرحية
قيصر وكليوباترا

خطة البحث

نبدأ بحثنا لمسرحية « قيصر وكليوباتره » بصفحات عن تاريخ الحضارة الاغريقية وحكم البطالسة لمصر . وقد توسعنا الى حد ما فى الحديث عن هذه الخلفية التاريخية لسببين أولهما هو اعطاء فكرة عن الاطار الزمنى الذى كانت أحداث المسرحية تدور فى أواخر أيامه والثانى هو أن أحد أغراض المؤلف من كتابة المسرحية كان نقد الحضارة المذكورة فرأينا أن نزود القارىء الذى لم تتح له فرصة الالمام بعناصر هذه الحضارة بمادة تسمح له بالوقوف على أبعاد هذا النقد .

وقد نقد برنارد شو الحضارة الرومانية أيضا فى المسرحية وكان يصح أن نعطى نبذة عن تاريخ هذهالحضارة ولكننا استعضنا عن ذلك بالتحدث عن تاريخ الفترة التى عاصرها قيصر والتى كانت أهم فترة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية لأنها فترة التأسيس . وقد أكملنا هذا العرض التاريخى فى آخر هذا البحث بصدد الحديث عن عيسى ومحمد « عليهما السلام » والتاريخ .

ولما كان جانب كبير من فهمنا وفهم غيرنا للمسرحية يستند الى وجود فارق كبير بين شخصية قيصر كما رسمها المؤلف فى المسرحية وشخصية قيصر الحقيقية فقد كان لزاما علينا أن نعطى القارىء فكرة واضحة عن قيصر التاريخى .

وقد انتقلنا بعد ذلك الى مسرحية « قيصر وكليوباترا » ذاتها فلخصناها وتحدثنا عن غرض المؤلف من كتابتها ثم عن قيصر المسرحية • وتطرقنا من هذا الى عرض آراء بعض المؤلفين الذين يرون أن قيصر المسرحية يختلف اختلافا بينا عن قيصر التاريخي ثم لرأينا نحن في مختلف النقاط التي أثاروها ورجحنا أن يكون برناردشو قد استعار شخصية قيصر للتحدث من خلالها عن نبى الاسلام صـلى الله عليه وسلم •

وكان لابد للتدليل على هذا الرأى أن نوضح أولا كيف عرف برنارد شو الاسلام ونبيه (ص) وأن نبين أنه عرفه أساسا من قراءة ترجمة القرآن الكريم ، ثم أن نبين رأى « شو » في محمد (ص) كما أوجزه هو في ست كلمـات وكما استخلصه أشهر كتاب سـيرته ، ثم أن نتعرف على الاسـتراتيجية التي اتبعها ليقنع القارىء بما اقتنع به هو من عظمة النبى وعظمة دينه ، فقد نقد الحضارة الاغريقيـة ثم نقد الحضارة الرومانية ثم نقد بريطانيا • وافضى بنـا ذلك الى موضوع اخر هو الطريقة التي قدم بها المؤلف نبي الاسلام (ص) لقرائه « باعتبار ان رسالته مكملة لرسـالة السيد المسيح عليه السلام » كعلاج لامراض الجنس البشرى وشروره • والمجنا الى « المفاتيح » التي زود بهـا المؤلف القارىء ليسهل عليه مهمة الاهتداء الى أن قيصر المسرحيـة انما يرمز الى محمد (ص) • وأشرنا بعـد ذلك الى الآيات القرآنية الكريمة التي قد تعتبر مقـابلا للاغراض التي توخاها المؤلف من كتابة المسرحية على النحو الذى شرحناه آنفا وتلك التي رجحنا أن يكون المؤلف قد استند اليها في رسم ملامح شخصية الرسول العربى (التي خلع عليهـا « شو » رداء قيصر) •

الحضارة الافريقية
وحكم البطالمة لمصر

كان المجتمع الأثينى فى القرن الخامس قبل الميلاد مجتمعا ديمقراطيا نصفه من المواطنين ونصفه الآخر من العبيد . ولم يكن يعترف فيه بحق المواطنة ويسمح بالتالى بالتمتع بمزاياها الا لمن ولدوا من أبوين آثينيين . وكان مجتمعا ينفصل فيه الرجال عن النساء حتى فى داخل البيت الواحد ، ولم يكن يقام فيه للمرأة حساب . وكان بوسع الرجل أن يطلق المرأة بارادته الوحيدة وان يتصرف فى أولاده كيف يشاء ، أما بإبقائهم فى كنفه أو بالتخلص منهم بهجرهم فى مكان عام . وكانت حرية الرجل الجنسية مطلقة وكان بوسعه أن يتخذ من الخليلات ما يشاء دون حرج أو قيد من قانون أو أخلاق . وكانت المرأة جاهلة حبيسة البيت . وقد أدى ذلك الى قيام صداقات حميمة بين الرجال كان معظمها ينشأ فى صفوف الجيش ، كما أدى الى انتشار الشذوذ الجنسى بينهم . وكانت الشئون السياسية والحروب تبعد الرجال عن جو الأسرة ، ولم يكن يسمح لمراة بالاشتراك حتى فى مجالات التسلية والترويح . ولم يكن يؤذن للمخلطين أى لمن ليس أبواهم من الأثينيين بتملك العقارات ، واذا قتل أثينى شخصا مخلطا لم يكن يحكم عليه بالاعدام بل كان يحكم عليه بالنفى ، على أن المخلط كان يلزم بدفع الضرائب وبتأدية الخدمة العسكرية .

وكان الأثينيون يشترون العبيد من الأسواق الخارجية، وكان هؤلاء العبيد عادة من أسرى الحرب أو ممن خطفوا أو من الابنـاء الذين باعهم آباؤهم . ولم يكن المفـكرون والفلاسفة يرون بأسا فى الرق كما لم يكونوا يرون فيه تعارضا مع المثل الأعلى للمجتمع الذى كان يرمى الى تكوين الفرد الحر المسئول . وقد حاول فيلسوف أثينا العظيم ارسطو أن يبرر الرق بقوله ان الطبيعـة جعلت اجسام الأحرار مختلفة عن أجسام العبيد وأعطت العبيد ما يلزم من قوة للقيام بالاعمال الشاقة بينما جعلت الأحرار عاجزين عن ثنى هاماتهم للقيام بهذه الاعمال . وقال ارسطو كـذلك أن في الجنس البشرى أفـرادا أدنى من غيرهم كالجسد الذي هو أدنى من الروح والحيوان الذى هو أدنى من الانسان ، وان العمل البدني بالنسبة لهؤلاء الناس هو خير ما يقدرون عليه ، وان الطبيعة نفسها قد هيأت أمثالهم للعبودية لأنهم لا يصلحون الا للطاعة . على ان معاملة الأثينيين للعبيد كانت ــ بخلاف الحال فى روما ــ معاملة طيبة الي حد ما ، رغم أن حالات العتق فى أثينا كانت قليلة .

وقد ظلت الديمقراطية بين ابناء أثينا الاحرار قائمـة بعد عام ٤٦٠ ق.م لمدى قرن ونصف ، وساعد على ذلك أن الثروات والفروق الاجتماعية فيها ، كما هو الحال عادة فى المدن البحرية ، كانت محدودة . وكان المجلس الشعبى مصدر السلطة الوحيدة وكان له الاشراف على كبار موظفي الدولة وكان هو الذى يقرر السياسة الداخلية والخارجية ويسن القوانين كما كان يشكل ، إذا احتاج الأمر ، محاكم من بين أعضائه . وكانت هنـاك هيئـة خاصة تمثـل الحكومة .

وكان اسطول أثينا الحربى أقوى اساطيل العالم الاغريقى كما كان جيشها البرى قويا ولو أنه كان اضعف من جيش اسبرطة . وكانت أثينا ترتبط فى اتحاد بعدد من المدن البحرية الاغريقية الاخرى . وقد استفادت من هذا الاتحاد فى تعزيز قوتها المادية والارتقاء بحضارتها الفنية والفكرية فبنت خلال القرن الخامس معابد رائعة توافد اليها المفكرون والفنانون من جميع مدن العالم الاغريقى فأصبحت « مدرسة لليونان » . وكان الأثينيون يعبدون الآلهة التى يعبدها سائر الاغريق ولكنهم كانوا يتجهون بصفة خاصة الى الآلهة التى كانوا يعتقدون انها تحمى مدينتهم . وكانوا يقيمون أعيادا كبيرة للاحتفال بآلهتهم تمثل فيها الكوميديا والتراجيديا وتنظم فيها المباريات الرياضية وتذبح القرابين وتقام الولائم . وكان للاغريق اشكال أخرى من العقيدة والعبادة فكانوا يؤمنون بجنيات الحقول والقطعان والسحر ويستشيرون الآلهة فى بعض المعابد المشهورة ، كما كانوا يمارسون أحيانا طقوسا كطقوس الهمج تذبح فيها ضحايا من البشر . وكانوا يؤمنون بالخرافات والطالع ، ومن ذلك أن قائدا اسمه « نيسياس » ، هزم فى موقعة من المواقع ، كان بوسعه أن ينقذ جيش أثينا مستفيدا من خسوف القمر ولكنه تأخر فى الانسحاب بناء على مشورة احد الكهنة ، وكانت النتيجة أن فنى جنوده عن بكرة أبيهم . وقد عبد الأثينيون كذلك بعض الآلهة الاجانب مثل الاله « آمون » الذى كان يعبد فى واحة سيوه بصحراء مصر الغربية .

وقد ازدهر المعمار وصناعة التماثيل ازدهارا كبيرا فى

بلاد اليونان وكانت التماثيل تستخدم اساسا لتزيين المعابد ، كما ازدهر التلوين الزخرفى فيها .

وكانت الفلسفة والادب هما المجالان اللذان تفوقت فيهما اثينا على مدن اليونان الاخرى . وكانت اثينا ترحب بالمفكرين والكتاب ، وقد نشأت فيها صناعة نشر الكتب وكان فيها جمهور مثقف وكان نظامها التعليمى من اكمل النظم فى بلاد اليونان . كذلك حقق الفكر العلمى فى هذه الفترة تقدما كبيرا لا سيما فى مجال الطب .

على أن الحرب قامت بين أثينا واسبرطة وسقطت اثينا عام ٤٠٤ ق.م وفرضت اسبرطة على أثينا حل الاتحاد البحرى والتخلى عن كل ممتلكاتها الخارجية وتخفيض اسطولها الى ١٢ سفينة .

وكانت مقدونيا بالنسبة للاغريق بلدا قريبا من الناحية الجغرافية ولكنه غير متحضر . على أن الظروف هيأت لمقدونيا فى القرن الخامس قبل الميلاد حكاما على درجة عالية من الكفاءة . واستطاع الملك فيليب المقدونى أن يتغلب على الشعوب الهمجية المجاورة لمملكته اما بالحرب أو بمصاهرة كبرائهم . وفتح فيليب المقدونى فى منتصف القرن الرابع شبه جزيرة ال « بيلوبونيز » التى تشكل الجزء الجنوبى من اليونان وأعاد تنظيم بلاد اليونان كلها وكون حلفا ضم عددا كبيرا من المدن اليونانية فرض بمقتضاه على كل مدينة من مدن الحلف ان تقدم عددا معينا من الجنود . وبعد موت هذا الملك خلفه على العرش ابنه الاسكندر (الاكبر) . وبدأ الاسكندر حكمه باغتيال جميع من كانوا يتطلعون الى اعتلاء عرش مقدونيا وقتل انصارهم . وسار الى اليونان عام ٣٣٦ ق.م واعترفت

به جميع المدن الاعضاء في حلف « كورنثا » رئيسا لهذا الحلف . وسار الاسكندر بجيشه الى منطقة الدانوب ليؤمن الحدود الشمالية لمملكته . وراجت اثناء غيابه اشاعة بانه قد مات فحاصر أهل احدى المدن الحامية المقدونية التي كانت تعسكر فيها ، فلما عاد الاسكندر هاجم المدينة واعمل السيف فيمن كانوا يدافعون عنها وباع من بقي منهم على قيد الحياة كرقيق ودمر المدينة باكملها الا المعابد وبيت الشاعر « بندار » .

وكان الاسكندر يعشق الشراب والولائم التى تستمر ساعات ، وكان حين تلعب الخمر برأسه يتعرض لنوبات من الغضب تدفعه أحيانا الى القتل . وكان سياسيا بعيد النظر ذا ذكاء خارق وقدرة على معرفة الرجال وتقدير المواقف ، ولكنه كان قلقا يؤمن بالخرافات ويلجأ الى الكهنة ليستطلع الغيب . وكان يباهى بانه ينتمى من جهة أبيه الى هرقل أكبر ابطال الميثولوجيا الكلاسيكية ومن جهة أمه الى « أشيل » بطل حصار طرواده ، ويعتقد اعتقادا راسخا انه من سلالة الالهة . وكان يقول انه ابن « زيوس » كبير آلهة الاغريق .

وجمع الاسكندر جيشا قوامه ٤٠ الف رجل وهاجم الفرس في آسيا الصغرى والتحم مع ملكهم « داريوس » الذى كان جيشه يضم عددا من المرتزقة الاغريق . وهزم الاسكندر ملك الفرس هزيمة ساحقة ولم يسقط من رجاله سوى ٨٠٠ مقابل الوف أو عشرات الالوف من اعدائه ، قتلهم جنوده وهم يولون الادبار . وبعد ان تم له فتح آسيا الصغرى انتقل الى سوريا . وفتحت له « صيدا » أبوابها وفعلت المدن المجاورة فعلها . أما « صور » فقاومت واستمر حصارها سبعة أشهر ثم سقطت هي

الاخرى وقتل الاسكندر كل المدافعين عنهـا . أما غير المحاربين فقد بيعوا فى سوق النخاسة وكان عددهم ٣٠ الفا • ورغم هذه المعـاملة الفظيعة فان مدينة غزة قاومت بدورها جيش الاسكندر فحاصرها واستمر الحصـار شهرين ثم فتحها وعاملها معاملة « صور » اى قتـل محاربيها وباع غير المحاربين كرقيق . وسار الاسـكندر بعد ذلك الى مصر وهزم جيش الفرس الذى كان يحتلها ويسـوم المصريين ألوانا من العذاب واسـتقبله المصريون بترحاب كمحرر .

وقضى الاسكندر فى مصر شتاء عام ٣٣٢ ــ ٣٣١ ق‌م وقدم القرابين للعجل « أبيس » ووضع على راسه التاج المصرى المزدوج وأمر بترميم المعابد وجعل من نفسه خليفة للفراعنة . كذلك استس مدينة الاسكندرية على الساحل الشمالي المقابل لجزيرة « فاروس » وفتح مصر بذلك على تجارة البحر المتوسط . ثم ذهب الى واحة سيوة لتلقى نبوءات الاله « آمون » الذى كان الاغريق يعرفونه ويعبدونه ويوحدون بينه وبين الاله « زيوس » . وقد أجله المصريون كثيرا بعد هذه الزيارة .

وفى ربيع عام ٣٣١ ق‌م غادر الاسكندر مصر الى آسيا من جديد . وكان ملك الفرس « داريوس » قد أعد لحربه جيشا ضخما . والتقى الجمعان فى أكتوبر ٣٣١ وهزم الاسكندر داريوس ، وما انقضى اليوم الا وقد فرت فلول جيش داريوس ، وقتل فرسان الاسكندر آلافا من جنوده الهاربين . وبعد أيام دخل الاسكندر « بابل » فى جنوب العراق الحالى واستقبله أهلها كمحرر . وفعل فى بابل ما فعله فى مصر فنصب نفسه ملكا شرعيا على البلد ووضع يده فى يد الاله « مردوك » فى معبد هذا الاله وأمر باصلاح

المعبد المذكور . وفى سنة ٣٣٠ ق‌م دخل الاسكندر مدينة « برسبوليس » عاصمة امبراطورية فارس وأباح لجنوده نهبها . وبعد أيام أمر بحرق ما فيها من قصور ملكية وانطلق بجيشه فى اثر داريوس . ولكن احد أقيال الفرس سبقه واغتال هذا الأخير وعين نفسه ملكا . وعثر الاسكندر على جثة داريوس فامر بدفنها طبقا للمراسم الملكية ثم تعقب المغتصب وقبض عليه وأمر باعدامه . وسار بجيشه الى جنوب تركستان فى آسيا الوسطى وعاش فترة فى هذا البلد كما يعيش الملوك الشرقيون وارتدى زيهم واتخذ لنفسه حريما كحريمهم .

وكان الاسكندر يريد أن يكون عاهلا لكل رعايا امبراطوريته سواء كانوا من الاغريق او من غيرهم . وكان يفتح بلاطه لنبلاء الفرس ويكون فيالق من الجنود الفرس يدربها على الطريقة المقدونية . وكان يطلب من الجميع أن يعترفوا بأن لسلطانه جوهرا الهيا . وقد خالفه فى ذلك بعض ضباطه المقدونيين فقتل بعضهم بتهمة التآمر عليه أو السكوت على مؤامرات تحاك ضده وهى تهمة لم تكن فى معظم الاحيان تقوم على اساس . وبعد أن تم له فتح ايران وافغانستان قرر أن يفتح الهند . وكان جيشه يتكون من ١٢٠ الف رجل ثلثهم فقط من الاغريق او المقدونيين . وأحرز فى حربه انتصارات باهرة ولكنه تعرض لصعوبات جمة . وبلغ نهر « هيفاز » الذى يقع فى شرق باكستان الحالية ، وأمر ببناء نصب على ضفته ليسجل حدود فتوحاته كما أقام عليها مذبحا لآلهة جبل الأولمب اليونانى اى لآمون وهراقليس واثينا وزيوس وأبولون التى كان ينسب نفسه لبعضها كابن او كاخ .

واصيب الأسكندر سنة ٣٢٥ ق‌م بجرح خطير اثناء

الهجوم على احدى القلاع الهندية ثم قرر العودة ، ومر فى طريق عودته على عواصم امبراطوربته الواسعة . وكان يعد العدة للقيام بفتوح جديدة وينوى غزو الجزيرة العربية ولكنه أصيب بالملاريا فى عام ٣٢٣ ق‌م فى مدينة بابل ووافته المنية فيها ولم يبلغ من العمر ٣٣ عاما .

وقد ترك الاسكندر حكام « البنجاب » المحليين بالهند فى مناصبهم على أن يخضعوا لسلطانه وسمح للمدن الفينيقية بالاحتفاظ باستقلالها الذاتى . أما مصر ، التى نصب نفسه ملكا عليها بصفته الشخصية ، فقد كانت تتمتع بما يشبه الوضع الخاص . وكان الاسكندر يعتزم توحيد الشرق القديم ، وقد شجع النشاط الاقتصادى فى البلاد التى فتحها .

وكان للاسكندر ثلاث زوجات فارسيات منهن ابنة الملك « ارتاكسركس الثالث » الذى فتح مصر ، ومنهم ابنة الملك داريوس ، هذا علاوة على محظيات حريمه .

وقد تزوج ٨٠ من ضباطه و ١٠ آلاف من جنوده من نساء بعض البلاد التى فتحها .

وبعد وفاة الاسكندر الاكبر عام ٣٢٣ ق‌م عادت بلاد اليونان سيرتها الاولى فى الاقتتال فيما بينها وظل شأنها كذلك مما أضعف شوكتها فغزتها روما . على أن حروبها الجديدة قبل هذا الغزو كانت اخطر شأنا من حروبها السابقة فقد أضيفت الى الحروب التى كانت تنشب نتيجة لتنافس الدول الاغريقية الصغيرة فيما بينها حروب الملكيات المقدونية والشرقية الكبيرة . وظل خلفاء الاسكندر بعد وفاته بأكثر من أربعين عاما يتحاربون على اقتسام الامبراطورية التى انشأها . ورفض كبار الضباط من اعوانه أن يخلفه حاكم واحد على هذه الامبراطورية

المترامية الاطراف فقتلوا ابناءه واقاربه الذين كان من الممكن ان يتطلعوا لخلافته ، الواحد بعد الاخر • واقتسم بعض رفاق الاسكندر امبراطوريته ابتداء من عام ٣١٠ ق‌م واستولى كل منهم على ولاية من الولايات . وارادت أثينا ان تتحرر من قبضة مقدونيا فثارت عليها ولكن ثورتها قمعت بقسوة والغيت فيها الديمقراطية وقضي على كل محاولاتها للاستقلال .

وقد آلت مصر الى الجنرال بطليموس الاول أحد قادة الاسكندر ، وكان أبوه « لاجوس » من نبلاء مقدونيا . وظل ملك اسرة « لاجيدس » أى البطالسة لمصر من سنة ٣٢٣ ق‌م الى سنة ٣١ ق‌م وهو التاريخ الذى انتصر فيه القائد الرومانى « أوكتاف » على « مارك انطونى » ووفاة بطليموس الخامس عشر . وقد جعل ملوك هذه الاسرة الثلاثة الاوائل لمصر مكان الصدارة فى الشئون الدولية . ومكنت موارد مصر الغنية ، التي كانت تجبيها ادارة لا ترحم اقامها بطليموس الثانى (٢٧٩ ـ ٢٤٦ ق‌م) لخدمة الاغريق ، ملوك هذه الاسرة من مواجهة الممالك الاغريقية الاخرى فنجحوا فى الاحتفاظ بجنوب سوريا وفلسطين اللذين حاول ملوك أسرة « السلوسيديين » الاغريق استردادهما ودخلتا بشأنهما فى حروب عديدة مع بطالسة مصر . كذلك احتفظ البطالسة بمركز ممتاز فى بحر « ايجه » على سواحل آسيا الصغرى بل وفى منطقة المضايق .

ورغم أن اليونان لم تكن القوة المسيطرة فى شرق البحر المتوسط فان الملكيات الاغريقية الكبرى فى البلاد التى فتحها الاسكندر كانت بحاجة للتزود منها برجال الادارة وبالجنود المرتزقة وبالرواد باعتبارها قلعة الحضارة

الافريقية . ولكن بلاد اليونان كانت تعانى من ضعف متزايد كما أنها عجزت عن حل مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية وترتب على ذلك ان ضعف العالم الاغريقى كله وفقد جانبا غير قليل من قدرته على مواجهة تقدم الثقافات المحلية فى جميع بلاد الشرق وهجمات العناصر العسكرية . وعاشت جميع المدن اليونانية فى حالة توتر مستديم وكانت تهزها احيانا ثورات العبيد .

وكانت الاراضى التى فتحها الاغريق تستغل لصالح الاغريق وعناصر الارستقراطية التى انضمت اليهم وتوفرت بذلك للملكيات الكبرى التى تكونت الموارد التى كان لابد منها لتنفيذ مشروعاتها . ففى مصر مثلا عملت الادارة على اعادة اراضى الفيوم التى كانت قد هجرت منذ قرون طويلة الى الزراعة . وشجعت الادارة انتاج السلع التى تعود على المصدرين بأوفر الارباح وعلى الجمارك الملكية بايراد كبير . وقد أعطى ميناء الاسكندرية لمصر منفذا بحريا يتفق مع دورها الدولى ، وتعددت خطوط المواصلات بينها وبين موانىء البحر المتوسط الاخرى . وكانت القوافل البرية تصل تجارة الشرق الاقصى عن طريق موانىء المحيط الهندى والخليج الفارسى ببلاد اليونان عن طريق مصر . وتكونت من تجارة البهارات والحرير والاحجار الكريمة ثروات كبيرة فى الاسكندرية . وكانت مصر تستورد الاخشاب والمعادن وكذا النبيذ والزيوت الجيدة التى كانت تشتريها الطبقة الغنية الاغريقية ، وتصدر الحبوب وعددا كبيرا من المنتجات ذات القيمة كاوراق البردى والمصنوعات اليدوية والزجاج والعطور والمنسوجات . ولم يكن لأفراد الشعب نصيب كبير فى هذه التجارة الرائجة ، وكان الملوك لا يهتمون الا بالربح

العاجل وبجباية الضريبة . وكان للعنصر الاغريقى الحاكم وللمشتغلين بتجارة الاستيراد والتصدير ، وكلهم من الاغريق ، نصيب الاسد من هذه الارباح وكان معظم رجال الادارة منهم أيضا . ولم يكن أحد يلقى بالا لمصلحة الشعب وكان أصحاب المصالح والحكام يستغلون ابناء البلد أسوأ استغلال . وكانت مصر بالنسبة لعالم ذلك العصر البلد الذى كان نظام الاستغلال الضريبى يبلغ فيه اعلى درجاته . وقد استطاع البطالسة بفضل نظام معقد من الضرائب والاحتكارات أن يستأثروا بالجانب الاكبر من أنتاج البلد . وكان الملك الاغريقى يملك كل الارض تقريبا وكانت ادارته تنظم استغلال هذه الارض ، وكان الفلاحون ملزمين بزراعتها وفقا لتعليمات دقيقة من جهات الادارة . وكان محصول الاراضى كلها يوضع تحت الحراسة . ولم يكن بوسع الفلاح التصرف فى شىء منه الا بعد أن تأخذ مصلحة الضرائب قدرها المعلوم . وكان هناك احتكار ملكى بالنسبة لبعض المنتجات الزراعية كالزيت . وكانت جميع الزيوت المستوردة خاضعة للضريبة . كذلك كانت صناعة أوراق البردى وصناعة التعدين احتكارا للملك .

وفيما عدا ذلك نقل البطالسة فى مصر عن الفراعنة عبادة الملوك وجعلوا ملوكهم آلهة يعبدهم الناس . ولم يكن هذا تطورا كبيرا بالنسبة لليونان فقد كان الاغريق الأوائل يعبدون الأبطال والعظماء . وكانت السلطة كلها مركزة فى يد الملك الذى كان ملكا الها بالنسبة للمصريين وبطلا بالنسبة لرعاياه الاغريق . وكان سند الملك فى الحكم حاميات من الجنود والضباط الاغريق المعينين محليا أو المستوردين من بلاد اليونان . وكانت الادارة تستعين فى

المناصب الدنيا ببعض الموظفين المصريين ممن تعلموا اليونانية ، كما أن البلاط الملكى كان فيه بعض المصريين الذين تلقوا ثقافة يونانية . وقد نقل بعض الملوك البطالسة عن الفراعنة أيضا عادة زواج المحارم وهى عادة لم يكن لها أصل فى تقاليدهم القديمة . وكانت الاسر المالكة تعيش فى حالة ترف يبلغ أحيانا درجة الانحلال . وكانت سياسة البطالسة تتلخص فى توطيد دعائم نظام ملكى تحوطه أقلية اغريقية تستفيد من وضعها كسلطة منتصرة فى بلد محتل عسكريا . لذلك فان عدد المدن التى أسسها البطالسة واحتفظوا بها لم يزد عن ثلاثة : «الاسكندرية» و«نوقراطيس» و « بتوليماس » . وكان سكان هذه المدن ، من الاغريق والمصريين الذين أخذوا بأساليب الاغريق ، يتمتعون بمزايا الاستقلال الذاتى التى تتمتع بها المدن اليونانية . أما القرى فقد كان عدد الاغريق فيها محدداً وكان جلهم من الجنود المستعمرين ومن محظيى الملوك والاعيان الاغريق الذين كان الملك يمنحهم اقطاعيات تحتل مساحات واسعة من الاراضى . ومن أمثلة ذلك أن « ابولونيوس » وزير مالية الملك بطليموس الثانى كان يملك اقطاعية تبلغ مساحتها ٢٠٠٠ هكتار (أى حوالى ٤٧٥٠ فدانا) . وقد تكونت بمرور الوقت فى عواصم الاقاليم بورجوازية محلية اختلطت فيها عناصر الصفوة من المصريين المتشبهين بالاغريق بالعناصر الاغريقية الاصلية ، ولكن ملوك البطالسة لم يكونوا يشجعون هذا الاتجاه وظلوا يحرصون الى النهاية على بقاء الحواجز بين الطوائف المختلفة . وكان سكان الاسكندرية مثلا ينقسمون الى ثلاث طوائف : الاغريق واليهود والمصريون . ولم تكن عواصم المديريات تتمتع بوضع المدن ولا بأى ميزة خاصة . وكانت الادارة الاغريقية متحكمة بدرجة أثارت سخط الاهالى وجعلتهم يثورون

عدة مرات بعد سنة ٢٢٠ ق‌م كما أنهم كثيرا ما كانوا يعلنون المقاومة السلبية . وكان من الظواهر المألوفة ان يهرب المصرى الذى أثقلتـه الضرائب من مكـان اقامته ويتخذ لنفسه مسكنا فى منطقة لا يعرفه فيها أحد ، كما أن بعض المصريين كان يخرج على السلطة ويتحول الى مغامر او قاطع طريق .

واصبحت اللغة اليونانية لغة المثقفين فى مصر وفى غيرها من الممالك الاغريقية . وقد كتب المؤرخ «مانيتون» المصرى فى القرن الثالث قبل الميلاد باللغة اليونانية تاريخ الملوك الفراعنة من بداية التاريخ الفرعونى حتى عهد الاسكندر الاكبر ، وترجم يهود الاسكندر كتابهم المقدس الى اليونانية . أما لغة الكلام فقد بقيت كمـــا هى مع بعض الاضـــافات اليونانية كما أن الثقافات المحلية ظلت ثابتة على المستوى الشعبى .

وقد بنى الاغريق فى البلاد التى فتحوها مبانى ونصبا ومعابد كثيرة . وكان من انجازاتهم الباقية فنار الاسكندرية الذى كان ارتفاعه يبلغ ١٢٠ مترا وكان نوره يصل الى ٣٠ كيلو مترا . وبنيت المـدن الاغريقية وفقا لاصـول العمارة المدنية الاغريقية بشوارع عريضة واسواق فسيحة وميـادين تحيطها البـواكى وانشـاءات مائية . وبنيت البورجوازية الجديدة مساكن فسيحة هيئت فيها اسباب الراحـة والمتاع . وازدهرت فى المـدن الاغريقية انواع الفنون .

وكانت الاسكندرية مركزا من اكبر مراكز التقاء التيارات الفنية والبشرية فى العالم الاغريقى . وقد صهرت جميع هذه التيارات واستخدمت جميع العناصر التى اتت بها وانشأت فنا بل وشكلا من أشكال الحضارة كان يعرف

باسم « الاسكندرانية » . وكان الفن الاسكندرانى يتميز بحيويته ودقته وبالملاحظة الواقعية التى تظهر فى معالجة مواضيع مثل الفلاحين والعبيد والاقزام والمسنين ، وبرمزية تضفى على تصوير الطفل والمناظر الطبيعية المصورة او المنحوتة صبغة دينية تشير الى الاله « ديونيزيوس » والى العالم الآخر .

وكانت الاسكندرية هى المكان الذى يرمز الى الحضارة الاغريقية المنتصرة ويوفر الشىء الذى تميزت به هذه الحضارة اى ... الثقافة . ولم يكن باستطاعة المصرى ان يختلط بمجتمع المنتصرين الا بقدر ما يحصل من المادة الفكرية والمعنوية التى يحصلها اغريقى درس فى المدارس الاغريقية . ذلك أن الاغريق الذين استقروا في بلاد اجنبية ، معادية فى معظم الاحيان ، كانوا حريصين على استمرار تراثهم الفكري والثقافى . وكانت هذه هى مهمة المؤسسات التعليمية التي اقامتها جميع المدن اليونانية الكبرى . وكان للرياضة البدنية اهمية خاصة فى النظام التعليمى كما كان الاهتمام ينصرف الى تعليم الادب والبلاغة وعلوم الادارة والتجارة . وقد بذل الملوك جهودا كبيرة لتنظيم التعليم العالى والبحث وانشىء فى الاسكندرية متحف كبير . وكانت الاسكندرية ملتقى الفلاسفة والعلماء والمتخصصين فى جميع فروع المعرفة . وكان الملوك البطالسة يحتفون بهم ويكرمون وفادتهم . وكان علماء العالم الاغريقى يجدون فى الاسكندرية ما لا يجدونه فى غيرها من المدن من وسائل العمل والبحث ، فكان تحت تصرفهم حديقة للحيوانات واخرى للنباتات ومكتبة تضم كل المؤلفات المعروفة قديمها وحديثها . وقد زاد عدد الكتب التى فى هذه المكتبة من ٢٠٠ الف مجلد فى عام

٢٨٥ قم الى ٧٠٠ الف كتاب في سنة ٤٨ قم وهي السنة التي تدور فيها أحداث المسرحية . وكان أكبر علماء العصر يدعون لادارة هذه المكتبة . وكان من مديريها عالم الرياضة الجغرافي المؤرخ المشهور « ايراتوستين » .

وكان في الاسكندرية حياة أدبية مزدهرة ، ولم يكن في العالم الافريقي مؤلف أو أديب كبير لا يمر على بلاط ملوك البطالسة . ولذلك يمكن أن يقال أن الادب « الهلنستي » كان أدبا سكندريا بكل معنى الكلمة سواء بالوسط الذي ضرب فيه بجذوره أو بميول مؤلفيه . وقد جمع علماء الاسكندرية كتابات مؤلفي الاغريق كلها وعلقوا عليها ، وهم الذين يرجع اليهم الفضل في معرفة آداب اللغة اليونانية والمحافظة عليها ، وفي مقدمتها اعمال «هوميروس» و « ديموستين » . كذلك كانت لهم كتابات كثيرة اعتمدوا فيها على مراجع من سبقوهم . ويقال أن أحد علماء الاسكندرية واسمه « ديديم » ، وقد عاش في القرن الاول قبل الميلاد ، كتب ٣٥٠٠ مصنف في موضوعات شتى بعد أن درس عددا لا يحصى من وثائق مكتبة الاسكندرية . وقد أدت وفرة الوثائق في الاسكندرية الى ظهور مزيد من التخصص لا سيما في مادة التاريخ ، وشمل التخصص مجالات الابداع الادبي الاخرى . على ان هذا الابداع انقطعت صلته بالالهام الشعبي واصبح قاصرا على بعض اوساط العلماء والمثقفين . وقد حفلت الفترة الهلنستية كذلك بكثير من المعارف العلمية في مجالات كالفلك والرياضيات (وكان « اقليدس » ، الذي عاش حوالي عام ٣٠٠ ، من علماء الاسكندرية) والطب والتشريح (وكان التشريح يجري احيانا على اجساد المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام) والجغرافيا .

على أن الهوة كانت عميقة بين جماعة العلماء وتلامذتهم قليلين وبين سواد الشعب الذى بقي ايمانه بالمعجزات والاعاجيب لا يتزعزع . وفى القرون التالية ساء حال العلم واختلط علم الفلك بالتنجيم وشلت حركة البحث الطبى نتيجة للايمان بفعالية السحر .

هذا وقد تطورت دراسة الفلسفة فى بلاد اليونان وظلت اثينا عاصمتها ، واصبح الذى ينشد فى الفلسفة هو تعلم الطريق الى السعادة عن طريق اكتساب الحكمة . وقد تجاهلت جميع المدارس الفلسفية التى ظهرت فى العصر الهلنستى تقدم العلوم واصبحت السعادة عندها تتمثل فى غياب العواطف والانفعالات القوية .

وفيما يتعلق بالديانة ظلت المعابد القديمة غاصة بالنصب والتماثيل التى كان الملوك يقيمونها فى المدن التى ينشئونها . وكان الحجاج يهرعون زرافات الى الاعياد الدينية الكبرى ، كما انشئت أعياد أخرى جديدة تجتذب اليها جماهير غفيرة من الناس . على أن تقوى الناس كانت تقوى ظاهرية وكان يداخلهم شعور بقصور ديانتهم فالشكليات فيها كثيرة والاخلاقيات وقواعد السلوك معدومة وقصصها الدينى متضارب كما أنه لا يتفق مع فكرة الناس عن الكون . ولم تكن هذه الديانة تقترح علاجا لمخاوف الانسان وهواجسه . وقد بدا أن عبادة الملوك هى الحل الا أن المضمون السياسى لهذا الشكل الجديد من أشكال الديانة لم يكن يكفى لاشباع غليل الناس لدين يكفل لهم الاخلاص .

وقد لقيت عبادة ربة الحظ « فورتون » التى لا تفصح عن مقاصدها والتى تربط الكون وتحله ، نجاحا كبيرا ، كما عبد الاله « زيوس » أهم آلهة الاغريق . وكان هذا

الاله يرمز فى البداية الى الظواهر الجوية ثم تحول شيئا فشيئا الى صورة ذلك الذى تغلب على الشر وجعل النظام والحكمة والعدالة تسود العالم وكانت الأساطير الاغريقية تنسب اليه جميع نواحى الضعف البشرية ولكنها كانت ترى فيه الرب الذى يشمل الناس بعطفه ورعايته .
وأصبح الإله « ديونيزوس » الاله الحقيقى عند كثير من الاغريق وكان يمثل اله الزرع واله نبيذ العنب بوجه خاص . وكانت طقوس عبادة هذا الاله تتخذ شكل مسيرات يغنى فيها الكورس ويرقص الراقصون . وكانت تجرى فى أعياد « ديونيزوس » مباريات فى العروض المسرحية ساهمت كثيرا فى نمو التراجيديا اليونانية والفن الغنائى ، وكان الناس يجدون فى عبادته راحة واطمئنانا لما كانوا يقولونه عن طفولته وعما قاساه فى حياته وعن قدرته على انقاذ من يتقدمون فى عبادته . وكان هناك اله آخر يعتقدون أنه يشفى العلل والأسقام هو الاله « اسكليبوس » .

هذا فى بلاد اليونان . على أن الديانات القديمة ظلت سائدة فى البلاد التى فتحها الاغريق . وفى مصر مثلا بنى البطالسة مجموعة معابد « ادفو » ، وشيدت فى كل مكان معابد لأوزريس وايزيس . كذلك أدمجت فى بعض الاحيان آلهة مختلفة . وقد حدث مثل ذلك بالنسبة للاله « سيرابيس » الذى خلقه بطليموس الاول ليكون الها مشتركا يعبده المصريون والاغريق على السواء . خلع الملك المذكور طابعا اغريقيا على الاله الجنائزى «أوزريس ابيس » الذى كان يعبد فى « ممفيس » ، وقد أسند بطليموس له صفات الآلهة « زيوس » و « اسكليبوس » و « ساد » و « ديونيزوس » وغيرها لكى يجعل منه اله

الموتى والاله الشافى واله الخصب والاله المنقذ . وقـد احتقر المصريون هذا الاله الرسمى الذى لم يأتهم بجديد ولكن اتباعه من الاغريق الذين كانوا يعيشون فى مصر وخارجها فى اليونان وآسيا الصغرى كانوا كثيرين . ورغبة فى تأكيد الطابع المصرى الاغريقى المختلط لهذا الاله عمد البطالسة الى اضافة تمثال للشاعر الاغريقى «هوميروس» وتماثيل تحيط به لخمسة من الفلاسفة الاغريق وخمسة آخرين من الشعراء الاغريق الى مقام الاله « سيرابيس» فى مدينة « ممفيس » .

والخلاصة هى أن العبادات فى العصر الهلنستى كانت تتسم بكثير من الخلط فى الافكار وفى قواعد السلوك . وقد بلغ التنجيم والسـحر فى هذا العصر ذروتهما كمـا امتزجت ديانات الاغريق القديمة بالديانات الشرقية .

روما وقيصر

روما

كانت روما مدينة تتخذ شكل الجمهورية . وقد اخضعت ايطاليا كلها لسلطانها عام ١١١ قبل الميلاد . وكانت حكومة الجمهورية ترتكز على توازن السلطة بين مختلف الهيئات السياسية الموجودة فيها أي مجلس الشيوخ والطبقة الحاكمة والشعب . وكان على رأس الطبقة الحاكمة قنصلان (وكانت وظيفة القنصل فى روما القديمة غير الوظيفة التى نعرفها الآن التى هى تمثيل مصالح الدولة التجارية والاقتصادية فى الخارج) . وكان القنصلان يمارسان أعلى سلطة في الدولة وكان ينتخبان لفترة محدودة . وكانا وباقى المسئولين يمارسون وظائفهم تحت اشراف مجلس الشيوخ الذى كان يمثل السلطة الدائمة . وكانت مقاليد الحكم فى يد الطبقة الارستقراطية وقد سمح لأفراد الشعب ، بعد تطور طويل ، بالوصول الى بعض المناصب .

وفى سنة ٢٦٤ ق م استولى الرومان على صقلية ، وفى سنة ١٤٦ ق م أصبحت اليونان ومقدونيا (فى شبه جزيرة البلقان بين اليونان ويوغسلافيا وبلغاريا) ولايتين تابعتين لروما . وكانت قرطاجة (وهى مدينة فى شمال افريقيا على خليج تونس) فى ذلك الوقت تحتل مناطق عديدة على سواحل صقليا وسردينيا . وحاربت روما قرطاجة وانتصرت عليها وجعلت منها ولاية لها كان اسمها

ولاية روما الافريقية . وفى سنة ۱۳۳ ق‌م تنازل ملك « برجام » (ازمير الحالية) بآسيا الصغرى عن مملكته اليونانية لروما فأصبحت « برجام » ولاية لها كان اسمها ولاية روما الاسيوية . وكانت روما قد استولت فى حروبها السابقة مع جمهورية قرطاجة على الجانب الاكبر من اسبانيا الذى كان تابعا لهذه الجمهورية . وفى سنة ١١٨ ق‌م كونت روما فى جنوب فرنسا ولاية تحتل المسافة بين اسبانيا وايطاليا . وقد ترتب على هذه الفتوح كلها أن افتقرت الطبقة الريفية فى روما التى لم يكن لها نصيب فى مكاسب الحرب ، كما قام العبيد فى الولايات التابعة لروما بثورات كبيرة . وظهر فى وجه حزب النبلاء الحاكم حزب شعبى يطالب باصلاحات اجتماعية ، ولكن مجلس الشيوخ ، الذى كان معظم أعضائه من طبقة النبلاء ، رفض هذه الاصلاحات . وقد انتخب الحزب الشعبى سنة ۱۰۷ ق‌م . قائدا حربيا مظفرا اسمه « ماريوس » قام بعدد من الاصلاحات لمصلحة الشعب .

قيصر

ولد قيصر سنة ١٠٠ قبل الميلاد . وكانت عمته زوجة « لماريوس » قنصل روما . وكان أبو قيصر قاضيا توفى بعد أن زوج ابنه من فتاة ثرية . وكان قيصر فى السادسة عشرة من عمره حين مات أبوه . وطلق قيصر زوجته بعد وفاة أبيه وتزوج من ابنة رئيس الحزب الشعبى . وكان يكره حكم طبقة النبلاء ، ولو انه كان ينتمى اليها ، ويميل الى الشعب . وكان زواجه الثانى ـ بالاضافة الى كونه هو من أقرباء القنصل « ماريوس » ـ من العوامل التى قوت لديه هذه النزعة . وانخرط قيصر فى سلك الجندية

واشترك كضابط في حروب روما في آسيا الصغرى واظهر فيها شجاعة فائقة . وكان في روما قائد عسكرى ورجل سياسي مشهور اسمه « سيللا » من انصار الطبقة الأرستقراطية ، يناصب « ماريوس » العداء . وقد انتخب « سيللا » قنصلا عام ٨٨ ق.م فعدل الدستور لصالح الطبقة الارستقراطية وحد من سلطات ممثلى الشعب المنتخبين . واستمرت الخصومة بين « ماريوس » و « سيللا » فترة طويلة وكان كل منهما يضطهد انصار الآخر ويقتل منهم من يستطيع قتله .

وقامت في هذه الاثناء ثورة في اسبانيا عام ٨٠ ق.م استمرت ثماني سنوات كما تمرد عشرات الالوف من العبيد في ايطاليا بقيادة « سبارتاكوس » في الفترة من سنة ٧٣ الى ٧١ ق.م . وكلفت روما « بومبى » ، الذى كان مساعدا لسيللا والذى كان قد هزم انصار «ماريوس» في صقلية وافريقيا ، باخماد ثورة اسبانيا ، كما كلفت « كراسوس » ، الذى كان بدوره من انصار « سيللا » بالتصدي لثورة العبيد . ونجح « كراسوس » في هذه المهمة ونفذ حكم الاعدام بالصلب في آلاف عديدة من العبيد الثائرين . وعاد قيصر الى روما بعد اربع سنوات من الغياب عنها وانتخب مدعيا عسكريا ويرجح انه اشترك في حرب «كراسوس» ضد العبيد . وقد كوفىء «بومبى» و « كراسوس » ، اللذان كانا ــ بالاضافة الى صفتهما العسكرية ــ من رجال السياسة ، على خدماتهما بانتخاب روما لهما كقنصلين في سنة ٧٠ ق.م . واعاد هذان القنصلان الى طبقة الفرسان والى الشعب جميع الحقوق التى حرمهما منها « سيللا » .

وقد انتخب قيصر سنة ٦٨ ق.م مساعدا للمسئول المالى

عن اسبانيا . وفى سنة ٦٧ ق‌م انتخب عضوا فى مجلس الشيوخ ، وكان من مؤيدي القنصل « بومبى » ، وكانت زوجته الثانية قد توفيت فتزوج من ابنة « بومبى » . وعمل قيصر على تعزيز مركزه فأيد القنصل الثـــاني « كراسوس » وانفق مالا كثيرا على المباريات الرياضية التى كانت تنظم لتسلية الشعب وأيد فكرة توزيع الاراضي الزراعية على الفقراء . وفى عام ٧٣ انتخب رئيسا للكهنة فزاد ذلك من نفوذه فى روما التى كان الدين والسياسة فيها لا ينفصلان ، كما انتخب فى العام نفسه فى منصب قضائى . وفى السنة التالية عين قيصر فى منصب كبير باسبانيا وقام في هذا البلد بعدد من الاصلاحات الادارية وخفض الديون والضرائب المستحقة على الاهالى . وانتهز قيصر فرصة وجوده فى اسبانيا ليحقق مكاسب شـــخصية فقام بعدد من الغزوات فى المناطق الاسبانية التى لم تكن داخلة في نفوذ روما وبعدد من الغارات للحصول على غنائم .

وفى عام ٥٩ ق‌م انتخب قيصر قنصـــلا لروما وكان القنصل الثاني من أبناء الطبقة الارستقراطية ولكن قيصر استطاع بمهارته ان ينفرد بالســـلطة واستصـــدر قانونا للاصلاح الزراعي وزعت بمقتضـــاه قطع من الارض على المحاربين القدامى . ومما يذكر انه استصدر أيضا وهو فى هذا المنصب قانونا تعترف فيه روما ببطليموس الثالث عشر الحاكم الرومانى ملكـــا على مصر باعتباره صديقـــا وحليفا للشعب الرومانى ويخول لروما حق التدخل فى مصر اذا حدثت فيها أية اضطرابات . وقد تلقى «بومبى» و « كراسوس » ، كما تلقي قيصر ، مقابل هذا الاعتراف ، مبالغ كبيرة على سبيل الهدية من ملك مصر . واستصدر

قيصر كذلك عددا من القوانين بتخفيض مستحقات الدولة على بعض الطوائف والحد من المزايا التى كان يتمتع بها المحافظون وحكام الاقاليم والولايات الخاضعة لروما كما اتخذ كثيرا من الاجراءات التشريعية والادارية للحد من نفوذ خصومه السياسيين . وطلق كل من « بومبى » وقيصر امراته فى ظروف سنتعرض لها فيما بعد . وتزوج قيصر من ابنة احد زعماء الطبقة الارستقراطية كما زوج ابنته للزعيم « بومبى » وزاد بذلك من قوة مركزه . واستخدم قيصر علاقاته وماله ونفوذه فعينه مجلس الشيوخ حاكما ذا سلطات مطلقة فى المسائل العسكرية والمدنية والقضائية على منطقة تضم جزءا من يوغسلافيا الحالية وشمال وغرب ايطاليا وجزءا من الجانب الفرنسى من جبال الألب ، وزوده بقوات عسكرية واذن له باكتساب مستعمرات جديدة . واستطاع قيصر بالقوات المذكورة وبقوات عبأها محليا أن يخوض عشرات من المعارك وان يفتح ما بقى من فرنسا ، اى اكثر من ثلاثة ارباع اقليمها، كما فتح البلاد التى تعرف الآن بسويسرا وهولندا وبلجيكا والمناطق الواقعة غرب نهر الراين الذى يفصل بين فرنسا والمانيا وكان كل بلد منها يتكون من ولايات صغيرة . وكان بعض هذه الولايات يتحالف مع ولايات اخرى ويكون جيوشا ضخمة لمحاربة قيصر وصل عدد افرادها احيانا الى ثلاثمائة الف جندى ، ولكن عبقرية قيصر العسكرية والادارية ودهاءه السياسى مكناه من التغلب على هذه الجيوش الواحد بعد الاخر . وكان قيصر يتصدى لكل صعوبة او مشكلة بما يناسبها من تكتيك واستراتيجية وكانت اقسامه الهندسية تقيم القناطر والتحصينات فى سرعة مذهلة وكان يستفيد فى كل موقعة

من دروس المواقع التى سبقتها ويكيف خططه فى الهجوم والدفاع وفقا لما تقتضيه الظروف .

وحدثت فى انحاء مختلفة من البلاد التى كانت خاضعة لحكم قيصر عدة ثورات وهجم الاهالى المسلحون فى بعضها على القوات الرومانية وكونوا جيوشا جرارة أصبحت تهدد الوجود الرومانى . وقد أخمد قيصر هذه الثورات جميعها واتخذ حيال المقاتلين والزعماء وحيال الاهالى تدابير قمعية لا ترحم .

وكانت أنباء انتصاراته تقابل فى روما حين يصلها نبؤها بابتهاج عظيم من الشعب ومن مجلس الشيوخ .

وكانت المؤامرات والصراعات السياسية الدامية بين الاحزاب المختلفة خلال فترة غيابه قد زادت وساهم قيصر نفسه فى تدبيرها وزيادة حدتها . وساعد على سوء الوضع ان روما لم يكن لديها جيش واحد ولا قيادة موحدة بل كان لكل قائد من قادتها عدد من الفرق هو مسئول عنه.

وأراد قيصر أن يجدد مجلس الشيوخ تعيينه كحاكم فى البلاد التى وضعت تحت سلطته فتحالف من جديد مع « كراسوس » ومع « بومبى » واتفق الثلاثة على أن يؤيد كل منهم الآخر مقابل أن يحصل على مزايا جديدة . واستخدم قيصر الرشوة لشراء ذمم مائتين من أعضاء مجلس الشيوخ . واتفق بين الزعماء الثلاثة على ان يولى « بومبى » على اسبانيا وان يتخلى عن مصر التى كان قيصر يطمع فى فتحها ، وعلى أن يعين « كراسوس » على رأس جيش لفتح منطقة الشرق الاوسط الغنية . وتحقق لقيصر ما أراد فصدر قانون بعد فترة تعيينه كحاكم على فرنسا وسويسرا والبلاد الواطئة (وكان يطلق على هذه البلاد مجتمعة اسم « جول ») لفترة خمس سنوات ،

ومنع اثارة موضوع تعيين بديل له في هذا المنصب حتى سنة ٥٠ قم . وحدث فى سنة ٥٤ قم ان توفيت زوجة « بومبى » ــ ابنة قيصر ــ أثناء الوضع كما توفى مولودها فانقطعت الصلة التى كانت تربط قيصر ببومبى . ولم ينتقل « بومبى » الى اسبانيا كما كان مفروضا انيفعل بل ظل يحكمها من روما لكيلا يغيب عن مركز السلطة ولم يدخر وسعا لتعزيز مكانته فى عاصمة الامبراطورية ، وعهد اليه مجلس الشيوخ بمهمة الدفاع عن الدولة وتنظيم الانتخابات . ومنى « كراسوس » من الجهة الاخرى فى آسيا الصغرى بهزيمة ساحقة ولقى حتفه فى حربه ضد الفرس . وكان « كراسوس » يفضل قيصر على «بومبى» ففقد قيصر بموته نصيرا مهما .

ولكى يأمن قيصر جانب « بومبى» اقترح عليه انشاء صلة عائلية جديدة بينهما بأن يطلق قيصر ابنة اخيه من زوجها ويزوجها لبومبى وان يطلق « بومبى » ابنته من زوجهـــا ويزوجها لقيصر . ولكن « بومبى » رفض الفكرة وتزوج من أرملة « كراسوس » . وكان قيصر يتطلع من جديد لترشيح نفسه لمنصب القنصل ولكنه علم أنه اذا عاد الى روما قد يقدم الى المحاكمة وكان أعداؤه السياسيون قد سجلوا عليه مخالفات خطيرة تتعلق بتجاوز سلطاته وبعض الاجراءات التى اتخذها فى البلاد الخاضعة لحكمه .

وازدادت القلاقل والاضطرابات فى روما فعين مجلس الشيوخ « بومبى » سنة ٥٢ قم قنصلا وحيـــدا بدون شريك وكلفه بالسهر على أمن الدولة . وتحالف « بومبى » مع طبقة النبلاء وحاول ان يقنع مجلس الشيوخ بالحد من قوة قيصر العسكرية وعمـــل قيصر من جانبـــه على استمالة عدد من الشخصيات السياسية الهامة الى صفه

بالرشوة تارة وباستخدام نفوذ أقربائه وأصدقائه تارة أخرى . وزادت حدة التنافس بين الزعيمين . وقدم قيصر عدة حلول لتسوية الخصومة بالمحادثات المباشرة او عن طريق مجلس الشيوخ ولكنه لم يوفق فحاول انصاره استمالة الشعب الى جانبه . وبعث قيصر رسالة الى مجلس الشيوخ تحدث فيها عن نفسه وعدد انتصاراته العسكرية والخدمات التى قدمها الى الجمهورية واقترح للمرة الاخيرة ، كحل للأزمة المستحكمة بينه وبين «بومبى» ، ان يتخلى كل منهما عن قيادة القوات التى وضعت تحت تصرفه ، وهدد بأنه سيضطر ، اذا أصر « بومبى » على الاحتفاظ بقواته ، الى أن يحذو حذوه وبالسير الى روما لرفع المظالم التى ادعى أنها ارتكبت ضد الشعب وضده هو شخصيا . ولم يقبل « بومبى » ولا مجلس الشيوخ الحل المقترح وانحاز بعض أعضاء المجلس المهمون الى صف قيصر فنفذ تهديده وعبر بقواته نهر « الروبيكون » الذى يفصل ولايته عن جمهورية روما فى يناير سنة ٤٩ ق.م وبدات بذلك الحرب الاهلية .

وقد اعتمد قيصر فى هذه الحرب على تفوقه العسكرى وعلى تأييد الجماهير له . وكان مجلس الشيوخ على علم بذلك فسمح لبومبى بتعبئة ١٣٠ ألف رجل فى ايطاليا بالاضافة الى قواته المعسكرة فى اسبانيا . ولكن قيصر أغدق الهدايا والرشاوى على الشخصيات البارزة فى روما ودس من حاول ايهام « بومبى » ومجلس الشيوخ بأن قواته أضعف مما هى عليه لكيلا يتخذ خصومه العدة لمواجهته . وسار قيصر الى روما وبدأ هجوما خاطفا عليها فتملك الذعر الناس ولاذ أعضاء مجلس الشيوخ والقناصل بالفرار وغادر « بومبى » ذاته العاصمة ليقود القوات

المعسكرة فى جنوب ايطاليا . وفى منطقة تقع شرق روما حاصرت قوات قيصر التى كان قوامها ۵۰۰۰ رجل قوات قائد اسمه « دوميتوس » . ووجد هذا القائد أنه لا قبل له بمقاومة قيصر فاستسلم . واظهر قيصر رأفة كبيرة بالمهـــــزومين وأطلق سراح من كان قد أعتقلهم من أعضاء مجلس الشيوخ والنبلاء الشـــبان والفرســـان وحكام المقاطعات الذين أرادوا البقاء على ولائهم لمجلس الشيوخ ولكنه وضع يده على ما كان لدى « دوميتوس » من أموال وضم قوات هذا الاخير الى جيشه فزاد بذلك من تفوقه العسكرى على « بومبى » . وتعقب قيصر « بومبى » فى جنوب ايطاليا ودارت بين الطرفين معــركة فى ميناء « برنديزى » ولكن « بومبى » تمــكن من عبور بحــر الادرياتيك بقواته الى البانيا واضطر قيصر الى العودة الى روما . وأراد قيصر ان يعقد مجلس الشيوخ ولكنه عجز عن ذلك فقد كان معظم اعضاء المجلس من مؤيدى «بومبى»، فقرر العدول عن تعقب « بومبى » واتخذ ما يلزم من تدابير لحماية ايطاليا واطعامها وأمر بانشاء اسطول بحرى كبير وسار بقواته الى اسبانيا وحاصر فى طريقه مدينة مارسيليا التى كانت تناصر « بومبى » . وفى اســبانيا نشبت عدة معارك بينه وبين القوات المؤيدة لبومبى كان النصر فيها حليفه دائما . وكانت الشروط التى يفرضها على المغلوبين فى معظم الاحيان شروطا هينة فكان يسمح للبعض بالعودة الى بلادهم فى اسبانيا كما كان يرفــع الالزام بالخــدمة العسكرية عن البعض الاخر .

وأرسل قيصر قوات الى شمال أفريقيا غير ان قواته لقيت مقاومة عنيفة من انصار « بومبى » ومن قــوات « جوبا » ملك « نوميديا » (الجزائر حاليا) الذى حاربه

بقوة افريقية ضخمة تستخدم الأفيال . وهزمت قوات قيصر وبقى شمال افريقيا قاعدة موالية لبومبى . كذلك فان انصار « بومبى » أصبحت لهم السيادة البحرية فى بحر الادرياتيك . وهزم « اوكتافيوس » القائد الموالى لبومبى اسطول « انطونيوس » فى معركة دارت رحاها فى هذا البحر (وانطونيوس المذكور هو أخو « مارك انطونى » الذى ذهب الى مصر بعد ذلك وتزوج من كليوباتره) . وفتتت هذه الهزيمة فى عضد القوات الموالية لقيصر وجعلتها تعلن التمرد . على أن قيصر ، الذى كان قد عاد الى ايطاليا ، استطاع أن ينهى هذا التمرد بحزم وحكمه ولم يعاقب سوى عدد صغير من زعماء المتمردين .

وكان قيصر قد استطاع خلال ذلك أن يكون جيشا كبيرا قرر أن يهاجم به « بومبى » . وكانت عملية اجتياز بحر الادرياتيك الى البانيا عملية محفوفة بالاخطار ولكنها تمت فى النهاية والتقى الخصمان فى معركة أولى عقد النصر فيها لبومبى . وتبع هذه المعركة معركة اخرى فى اليونان هى معركة « فارساليا » حشد فيها قيصر ٧٠٠٠ فارس . ودارت الدائرة فى هذه المعركة على « بومبى » فهزم شر هزيمة وفرت فلول قواته من الفرسان والضباط الى جزيرة « كورفو » اليونانية وركب عدد آخر من رجاله الى ليبيا . وكانت هذه المعركة نقطة تحول فى الحرب الاهلية . وفر « بومبى » نفسه مع زوجته وابنه على مركبا ينقل قمحا متجه الى مصر . وخشى ملك مصر الافريقى بطليموس الرابع عشر ، الذى كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، وخشى وزراؤه ، سوء العاقبة لو انهم أكرموا وفادة « بومبى » . وذهب « أشيلاس » قائد الجيش لاستقباله فى قارب صغير وكلف أحد ضباطه باغتياله ونفذ

الضابط التعليمات . ووصل قيصر الى الاسكندرية فى اثر « بومبى » فى ٢ اكتوبر ٤٨ ق‌م مع فرقتين . وقدم له « تيودوتوس » معلم الملك بطليموس ووزيره رأس «بومبى» وخاتمه كهدية . ويقال أن قيصر أجهش بالبكاء لهـذا المنظر وأعلن استياءه لقتل هذا البطل الرومانى العظيم . وانتهز قيصر هذه الفرصة التى كان ينتظرها منذ زمن طويل لاخضاع مصر لسلطان روما لا سيما وأن شمال أفريقيا كان فيه قوات مناهضة له .

وورد فى بعض الكتب ان كليوباتره ذهبت للقائه ملتفة فى سجادة وانها حاولت أن تستخدم جمالها وسـحرها لتحظى بتأييده ، ولكن قيصر كان قد بيت النيـة على اضعاف مملكة مصر بجعل السلطة مشاركة بينها وبين اخيها .

وكان بالاسكندرية رصيف يصل جزيرة « فاروس » التى أقيم فيها الفنار بالمدينة ويقسم الميناء الى جزئين . وقد حرص قيصر ، الذى كان مع قواته فى الحى الذى يوجد فيه القصر الملكى ، على أن يبقى على صـلة بالميناء الشرقية كما أمر باضرام النار فى الاسطول الملكى وفى الترسانة البحرية . وحاول « بوثينوس » أحد رجال البلاط أن يدس السم لقيصر ولكن خاب مسعاه . وقد هب أهل الاسكندرية لمقاومة قيصر وأقاموا المتاريس فى الطرقات وبنوا فيها جدرانا سمكها ١٢ مترا . وكان قيصر من ناحيته يبث بذور الشقاق بين المصريين ويكـافىء سجناءه الذين يساعدون على اذكاء نار الشحناء بينهم بالافراج عنهم . وقد قتل القائد المصرى (اليونانى) فى احدى المعارك وعين قائد آخر مكانه . ووصل هذا الأخير ماء البحر المالح الى القنوات التى تحمل الماء العذب الى

القصر الملكى فاضطر قيصر الى الأمر بحفر آبار فى ساحته للتزود بماء للشرب .

وكان قيصر قد طلب من روما مددا من فرقتين . ووصل المدد بحرا وطلعت سفن قيصر الحربية لملاقاة السفن التى تحمل المدد وفرت السفن المصرية امام الاسطولين الرومانيين وضربت السفن المصرية الهاربة ، وكان المصريون قد نجحوا فى صنع أسطول جديد استخدموا فيه أجزاء السفن القديمة وحشدوه فى الميناء الغربية . والتف قيصر بسفنه حول جزيرة « فاروس » التى كان قد ركز فيها بعض قواته ودخل فى معركة بحرية مع الاسطول المصرى فى الميناء الغربية ثم انزل قوات جديدة فى جزيرة « فاروس » وعمل على احتلال طرف الرصيف الموصل بينها وبين المدينة ، وكان فى هذا الرصيف فتحة تسمح بعبور السفن . وشن أهل الاسكندرية هجوما مضادا على قيصر من المدينة ومن الميناءين الشرقية والغربية وأثرت ضرباتهم فى الرومان وغرقت السفينة التى كان يستقلها قيصر لكثرة من صعد على متنها من الجنود الفارين . ولقى ٤٠٠ جندى رومانى حتفهم فى هذه المعركة واضطر قيصر الى أن يسبح مسافة ٢٠٠ متر لينجو بنفسه . وأسر قيصر الملك الصغير ولكنه أفرج عنه متظاهرا بالعطف عليه ولكنه كان يهدف فى الواقع الى بث الفرقة بين المصريين . وقذف قيصر أسطوله ضد المصريين الذين كانوا يقطعون عليه الطريق وانتصر عليهم . ووصل الى مصر فى هذه الاثناء ، قادما من سوريا ، أمير صديق لروما هو الامير « مترايدت برجام » على رأس جيش قوى واستولى عام ٤٧ ق.م على مدينة « بيلوز » الواقعة شرق دلتا النيل وحاول أن يلتف حولها ليصل الى

الاسكندرية ولكنه لقى مقاومة شديدة من المصريين . وبلغ قيصر النبأ فهرع لنجدته وهزمت قواتهما المشتركة القوات المصرية وعاد قيصر الى الاسكندرية وكان الملك الصغير قد لقى مصرعه وهو يحارب . وبقى من ابناء أبيه ، الملك بطليموس أوليت ، أمير هو بطليموس الخامس عشر وكليوباتره واميرة اخرى هي الاميرة « أرسينويه » . ونادي الشعب بهذه الاميرة ملكة بعد موت أخيها . وحاربت « أرسينويه » قيصر ولكنه تمكن من التغلب عليها وأسرها وعرض عليها ان يطلق سراحها على أن تذهب الى قبرص وتقيم فيها ولكنها رفضت فأرسلها أسيرة الى روما . وتزوج بطليموس الخامس عشر الذى كان يبلغ من العمر عشرة أعوام من اخته كليوباتره وتولى الاثنان ملك مصر ولكن تحت حماية قيصر . وصحب قيصر كليوباتره فى رحلة غرامية على نهر النيل الى حدود أثيوبيا استغرقت شهرين تصحبهما ٤٠٠ سفينة تحمل الجنود .

وكان « فارناس » ابن السلطان الشرقى « مترياد العظيم » الذى كان « بومبى » قد هزمه فى آسيا الصغرى يحاول أن يستعيد ملك آبائه وينتزع بعض المناطق من الامراء الذين اعلنوا خضوعهم لقيصر . وهزم « فارناس » نائب قيصر فى أحد المواقع وأعمل السيف فى الرومان الذين كانوا يعيشون فى البلد الذى دارت فيه المعركة . وابحر قيصر مع قواته الى انطاكية وكون فيها جيشا صغيرا وعبر هضبة الاناضول والتحم مع قوات «فارناس» التى كانت تفوق قواته عددا وعتادا وتدريبا وهزمها هزيمة نكراء .

وكان أنصار « بومبى » قد عززوا مراكزهم فى تونس وارادوا ، بعد أن انضمت اليهم القوات الفارة من

« فارساليا » ، أن يواصلوا الحرب . وأبحر قيصر الى صقلية بعد أن أعاد السيادة الرومانية فى الشرق ثم وصل بقواته الى تونس وحاول اقتحام حصـــون المـدينة التى تعرف الآن بمدينة « سوس » . على أن جنوده الذين بلغ عددهم ٣٠٠٠ وبعض الفرسان عجـزوا عن ذلك . واتجه قيصر الى جنوب البلاد فاعترض طريقه قائد من انصار « بومبى » مع قوة من ١٠ آلاف فارس ولكن قيصر تغلب عليه . ووصلت الى قيصر امدادات جديدة وكميات كبيرة من القمح استولى عليها أحد قادته فقوى ساعده وقام بتحركات عديدة ضرب فيها تجمعات خصـــومه ، وكان يدرب جنوده على حرب الافيال ويغير أرض المعركة بين الحين والحين ويجر عدوه بعيدا عن مراكزه الى مناطق سبق له هو أن استنزف مواردها ثم ينقض عليه كالصاعقة . وكثر عدد الفارين من خصوم قيصر واعلنت بعض القرى ولاءها له . وسار قيصر بعد ذلك الى شمال البلاد فسحق أعداءه وقتـــل منهم زهاء ١٠ آلاف ومثـــل بهم أشنع تمثيل .

وكان قيصر قد نظم قوات الاحتلال الرومانية فى اسبانيا أفضل تنظيم ولكن القائد الذى عينه على رأســـها كان سيىء التصرف فأثار ضده حفيظة الناس وأوغر صدورهم كما أن القوات الموالية لقيصر تقاتلت فيما بينها . ولم ينجح القائد المذكور فى التغلب على من بقى من انصـــار « بومبى » ولا فى تعبئة القوات التى طلبها منه قيصر لحرب أفريقيا ، فما كان من قيصر الا أن أبحر الى اسبانيا فى سنة ٤٥ ق‌م وشن حربا قصيرة ولكنها طاحنة على أعدائه . واستماتت خصومه فى الدفاع ولكنهم وجدوا فى البداية أنهم لا قبل لهم به فألقوا السلاح ، وكان أحد

أبناء « بومبى » يقود قوات معادية لقيصر ويتجنب الاشتباك مع هذا الاخير ويحاول الابقاء على ولاء المناطق التى يعسكر فيها ولو بالقتل وأعمال الحديد والنار . وأخيرا حدث الاشتباك ، وحاربت قوات ابن « بومبى » ولكن قوات قيصر حاصرتها وسدت فى وجهها المنافذ وقابلت ضراوتها بضراوة أكبر وأحاطتها بدائرة من الرءوس المقطوعة رفعتها على أسنة الرماح . وقتل من خصوم قيصر فى هذه الموقعة ٣٣ ألف رجل وأحضرت له رءوس زعماء خصومه . وأخلى ابن « بومبى » مدينة قرطبة التى دارت فيها الحرب بعد أن أحرقها جنوده . وكانت وحشية جنود قيصر فى اسبانيا أحيانا لا تقل عن وحشية أعدائهم فقد حدث أنهم بعد أحد المواقع لم يجدوا شيئا يسلبوه فقتلوا آلافا من الاهالى وباعوا باقيهم كعبيد .

وكانت مواقع اسبانيا آخر مواقع الحرب الاهلية .

وكان من عادة قيصر بعد كل نصر يحرزه أن يجوب انحاء البلد الذى دارت فيه رحى الحرب ويملى على سكانه ارادته وينظم احتلاله ويعين المحافظين والمديرين وكبار الموظفين من اعوانه . فعل ذلك فى اسبانيا وفى اليونان وفى آسيا الصغرى وفى مصر وفى منطقة الشرق الاوسط ، وأنعم بمملكة على « متريدات برجام » الذى جاء لنجدته فى مصر ، ونزع أرمينيا الصغيرة من حاكمها الموالى لبومبى ومنحها لملك من حلفائه . وكان حيثما ذهب يفرض الضرائب ويستولى على ما يجده من أموال وثروات . وكان يعاقب المدن التى ناهضته ويجعل من البوا الناس عليه يدفعون ثمن عصيانهم غاليا .

وعاد قيصر الى روما بعد أن قضى فى كل مكان على القوات التى ظلت على ولائها لبومبى . وأقام فى هذه

المدينة ، عاصمة الامبراطورية ، عامى ٤٦ و ٤٥ ق‌م ، مهرجانات ضخمة احتفالا بانتصاراته كان يعرض فيها غنائم الحرب وأسراه من الملوك والامراء والقادة على الناس . وكان من هؤلاء الاسرى البطل الفرنسى « فرسنجتوركس » (وقد امر باعدامه فى اليوم الذى عرضه فيه على الجمهور) والاميرة المصرية « أرسينويه » اخت كليوباتره (وقد امر « مارك أنطونى » فيما بعد باعدامها) . وكان قيصر ينظم هذه الاحتفالات ، التى كان الشعب يدعى خلالها الى ولائم حافلة ، كوسيلة لاكتساب محبة الشعب كما كان ينظم انواعا شتى من المباريات لتسلية الجماهير .

ولم تكن لقيصر حين عاد الى روما من صفة رسمية سوى صفته التى منحت له من قبل كرئيس للكهنة ، ولكن انتصاراته جعلت مجلس الشيوخ يخلع عليه لقب دكتاتور ويخوله سلطات الدكتاتور . وأمر مجلس الشيوخ كذلك باقامة المهرجانات الرياضية واعلان عطلة رسمية مدتها خمسون يوما شكرا للآلهة على انتصارات قيصر كما قرر اقامة أعياد تذكارية تخليدا لانتصاراته وعرض صورته مع تمثال النصر فى المسيرات الشعبية وصنع تماثيل له توضع فى معبد الاله « كرينوس » وفى جميع المعابد الأخرى وبناء معابد تبرز صفتى الوفاق والتسامح اللتين كان يتسم بها قيصر واقامة أعياد سنوية تمجيدا لشخصه . وقرن مجلس الشيوخ اسم قيصر باسم الالهة «كويرينوس» وكان معنى هذا أنه جعل منه نصف اله . وقرر مجلس الشيوخ بعد ذلك تأليهه بصورة رسمية فأصبح الها معبودا شانه فى ذلك شأن باقى آلهة الرومان .

وفى سنة ٤٦ ق‌م خول مجلس الشيوخ والشعب قيصر

حق اعلان الحرب والسلم . وفى سنة ٤٥ ق‌م حصل قيصر على حق تصدر مجلس الشيوخ واصبح يمثل فيه مكانا اسمى من القنصلين . ثم منح قيصر نفسه بعد ذلك حق تعيين القضاة وكبار موظفى الامبراطورية وقيادة الجيش وسلطة التصرف فى اموال الدولة . وعين المجلس قيصر قنصلا بلا شريك لمدة عشر سنوات ثم حصل قيصر فى سنة ٤٤ ق‌م على حق تعيين القناصل وعلى عدة امتيازات اخرى لم يتمتع بها احد قبله فى روما وركزت سلطة الحكم كلها فى يديه . وعمل قيصر على تعديل مؤسسات الدولة لكى تتكيف مع الاوضاع الجديدة وزاد منذ عام ٤٩ ق‌م امكانيات حصول المدن والولايات التابعة لروما على ما يسمى « بحق المدينة » او حقوق اخرى قريبة منه تخفف من وقر تبعيتها لروما وتمنحها بعض الصلاحيات فى حكم ذاتها . كذلك منح قيصر حق المدينة لمن ادوا الخدمة العسكرية تحت قيادته . واصبح الجيش على هذا النحو اداة لادماج الولايات المتحدة فى روما . وفى روما نفسها قام قيصر باصلاحات عديدة فقرر تأجيل سداد ديون الافراد وتخفيض هذه الديون بنسبة ٢٥ فى المائة ، وقدم القمح مجانا للمحتاجين ، ومنح قطعا من الارض للآباء الذين لديهم ثلاثة ابناء . كذلك اتخذ تدابير لمنع الاسراف والترف واكتناز الاموال ، وحظر على النساء استخدام الاصباغ والتزين بالمصوغات الا من كن امهات يزيد عمرهن عن ٢٥ عاما ، وارسل شرطته فى المطاعم والاسواق لمنع تقديم ماكولات فاخرة ، وانفق مالا كثيرا لتجميل مدينة روما فبنى فيها المعابد وخصص منها معبدا للحرية ، واقام عديدا من التماثيل ذات الطابع الدينى ، ووسع ساحة السيرك التى كانت تستخدم

للمهرجانات الرياضية والمواكب الدينية ، ونفذ مشروعات عمرانية كبيرة كبناء مسرح ومكتبة عامة .

وكان قيصر يتطلع للملك وكان من المقرر تعيينه ملكا ـ أول ملك لروما ـ في جلسة لمجلس الشيوخ حدد لعقدها يوم ١٥ مارس ٤٤ ق.م . ولكن ذلك أسخط عددا من أعضاء المجلس وكان هؤلاء يرون في هذا الاجراء اهدارا للنظام الجمهوري الذي هو أساس الامبراطورية ودعامتها. وكان لدى أعضاء آخرين في مجلس الشيوخ أسباب شخصية أو حزبية تحملهم على محاولة الانتقام من قيصر.

وفي صباح ١٥ مارس ٤٤ اجتمع مجلس الشيوخ اجتماعا مهيبا ، وقف قيصر تحت تمثال له وضع في آخر القاعة ، واذا بنفر من الشخصيات يهجمون عليه ويطعنوه بالخناجر ٣٥ طعنة . ولم يقاوم قيصر ولم يدافع عن نفسه بل ضم اليه عباءته الى أن خر صريعا وأسلم أنفاسه الأخيرة .

صفات قيصر :

كان قيصر نبيلا أرستقراطيا وكان يقول أنه ينتمي من جهة أمه الى ملوك ومن جهة أبيه الى الالهة فينوس . وكان يزدري الأخلاقيات والقوانين ، وكان متلافا كثير الاقتراض . وكان في شبابه من المتأنقين الذين يحبون أن يكون لهم في الزي نمط يخرج عن المألوف . وحين تقدم به السن كان له تاج من الذهب يجب أن يضعه على رأسه أمام الناس ليخفي صلعته . وأعلن قيصر ذات مرة في مجلس الشيوخ وهو كبير للكهنة أنه ليس هناك عالم آخر ولم يثر قوله هذا ضجة في المجلس فقد كان المهم في روما

هو أن تقام الشعائر الدينية لا أن يكون لها مغزى خاص.
وكان يقول : اذا اقتضى الأمر أن يكون المرء ظالما فليكن ذلك للحكم والا فليكن من أهل التقوى . وكان أبيقوريا ينهى عن الملذات التى لا تستلزمها ضرورة . وكانت له صولات وجولات مع النساء وكان من عشيقاته زوجة القنصل « بومبى » ، وقد علم زوجها بذلك وهو عائد من احدى غزواته فطلق زوجته . وكان من عشيقات قيصر أيضا زوجة القنصل « كراسوس » وزوجة ممثل الشعب « سرفيوس سلبيوس » وأم « بروتوس » الذى اشترك فى قتله وكثيرات غيرهن . كذلك كانت له مغامرات غرامية مع نساء كثيرات فى الولايات التى خضعت لحكم روما اشهرهن كليوباتره وزوجة الملك « بوجود » الافريقى .
ولم يكن يكتفى بالنساء بل كانت له ـ وهذه حقيقة يذكرها المؤرخون ـ علاقات شاذة بالشبان والرجال ، وكان يدفع مبالغ باهظة لشراء العبيد من الرجال ذوى الوسامة والاجسام الجميلة . وقد قيل عنه فى مجلس الشيوخ أنه « زوج لجميع نساء روما وامرأة لجميع رجالها » .

وكان طموح قيصر وجشعه لا يقفان عند حد . وكان نهما لا يشبع من الذهب والجواهر ومن السلطة ومظاهر الشرف . وكان ذا ذكاء نادر وثقافة واسعة . وكان خطيبا مفوها وشاعرا وكاتبا ، وقد سجل فتوحاته فى مجموعة من الكتب لا تزال حتى الآن المصدر الأول لتاريخ هذه الفتوحات . وكانت لديه قدرة عظيمة على استخلاص الجوهر من ركام التفاصيل . وكان رجل حزم وعزم ، وكان يعرف قيمة الوقت فكان يستحث الجيش فى سيره ويقدم لجنوده المكافآت على سرعتهم . وكان يسير على

قدميه أمام طوابير قواته . وكان فارسا لا يتعبه قطع ١٥٠ كيلو مترا على ظهر جواده ، سباحا يعبر الانهــار سباحة . وكانت تنتابه أحيانا نوبات عارمة من الغضب وسط صفوف المقاتلين تجعله يمسك حملة الاعلام الهاربين من أقفيتهم ويعيدهم الى مكانهم .

على أنه كان ، فى قرن اتســـم بالقســـوة والعنف والوحشية ، شفوقا يمثل الشعور الإنسيــانى . وكان صديقا ودودا يتنازل عن فراشه لرفيق مريض . وكان لا يبخل بالتقدير حتى على خصومه ويقبل الاعتــذار . وكان يميل الى أخذ الناس بالحسنى متسامحا سريع العفو . فاذا لم يأت التسامح والعفو بنتيجة استخدم الشدة واشتط فيها . وكان لا يسرع الى الانتقام ولكنه اذا انتقم سار فى انتقامه الى آخر المدى ولم تأخذه بمن ينتقم منه شفقة ولا رحمة . وكان ذا طاقة خارقة على العمل . وكان ينفق فائض طاقته فى الجهد البدنى والحرب والقيادة . وكان قوى الارادة ماضى العزيمة ذا قــدرة لا تبارى على التنظيم . وكان يتقن قيادة الرجال ويحسن اختيار اعوانه ويجزل لهم العطاء .

مسرحية قيصر وكليوباترا

نشرت مسرحية « قيصر وكليوباترا » فى عام ١٨٩٨ ومثلت لأول مرة فى عام ١٩٠٧ . وهى من خمسة فصول يسبقها مشهد تمهيدى أسماه المؤلف « بديل البرولوج » (والبرولوج فى التراجيديا اليونانية القديمة هو مشهد يسبق دخول « الكورس ») . وقد أضاف « شو » الى المسرحية « برولوج » فى سنة ١٩١٢ . وفيما يلى ملخص للمسرحية بأجزائها المختلفة .

البرولوج

يتخذ هذا البرولوج شكل خطبة وعظ طويلة من اله الشمس الفرعونى رع (الذى كان ملوك مصر منذ عهد الامبراطورية القديمة وحتى نهاية الملكية الفرعونية يعلنون أنهم أبناؤه) الى جمهور المسرحية البريطانى يقول للانجليز فيها أنهم ليسوا أول من علا فى الارض وأن قدماء المصريين كانوا أعظم منهم شأنا وان الاهرام التى بناها شعبه لا زالت قائمة وأن امبراطوريتهم التى تبدو أشبه بكومة من التراب رغم ما يكسدونه عليها من احداث أبنائهم ستذهب أدراج الرياح ، وان روما القديمة كانت مدينة فقيرة صغيرة ولكنها كانت جشعة وضارية وشريرة وأنها اغترت بعطف الالهة عليها ـ والالهة تصبر على الصغار ـ

وتصورت أن الطريق الى العظمة انما يكون بسلب الفقير وقتل الضعيف ، وان الرومان بدءوا بسلب أموال فقرائهم فلما تم لهم ذلك شرعوا فى نهب أموال الفقراء فى البلاد الاخرى ، وأضافوا هذه البلاد الى ملك روما فاغتنت روما وازدادت رقعتها بينما ظلت عقـول الرومان صغيرة .
وينتقل « رع » من ذلك الى الحديث عن « بومبى » القائد الرومانى العظيم الذى كان جنـديا وحسب « وطريق الجندى هو طريق الموت » ، وعن قيصر الذى كان فى جانب الآلهة « وطريق الالهة هو طريق الحياة » ويضيف أن قيصر ــ كساستهم ــ كان يشترى الرجال بالكلمات وبالذهب ، وان الرومان طالبوه بأمجاد الحرب فأجابهم الى طلبهم ، وأن « بومبى » كان يرى أن قانون روما القديمة فوق الجميع ويهدد من يخرج عليه بالاعدام ، وأن قيصر آلى على نفسه أن يحطم قانون روما القديمة ، وانه حطم هذا القانون بالفعل ، وأن « بومبى » أراد أن يعاقبه على ذلك فسار اليه فى جيش عرم لينتصر لروما القديمة وهزمه ووقف فوقه وفوق العالم كله « كما تقفون انتم بأسطولكم الذى تغطى قطعه ثلاثين ميلا من البحر »، وأن قيصر لم يتملكه اليأس رغم هزيمته لانه كان يعتقد أن فوق روما القديمة وقانونها وقوتها العسكرية آلهـة وأن روح الانسان المتمثلة فى شخصه إنتصرت على الدم والحديد اللذين كان « بومبى » ــ والانجليز ــ يؤمنان بهما « فان روح الانسان انما هى ارادة الرب » وأن قوة « بومبى » ما لبثت ان تهاوت تحت قبضته كما تهاوت قوة اسبانيا الامبراطورية حين هاجمت انجلترا عندما كانت انجلترا بلدا صغيرا (بغرق اسطول « الارمادا » الذى أرسلته لغزو انجلترا عام ١٥٨٨) .

وينذر الاله « رع » النظارة الانجليز قائلا : خـذوا اذن حذركم فلعل شعبا صغيرا استعبدتموه يقوم من كبوته ويسلطة الله عليـــكم جزاء لكم على تفـاخركم وظلمـــكم وشهواتكم وحماقتكم . لقد فر « بومبى » الى مصر هاربا بعد أن هزمه قيصر فتعقبه قيصر : « رومانى يفـر ، ورومانى فى أثره ، كلب يأكل كلبا » . ولم يعرف المصريون يومها أى القائدين يؤيدون فتوجهوا الى ضابط رومانى تستبد به شهوات روما اسمه « لوسيوس سبتيموس » سبق أن خدم فى جيش « بومبى » وطلبوا منه ان يشـير عليهم برأى فنصحهم بقتل أحد الكلبين ارضـاء للكلب الآخر فقالوا له أن آلهتهم تحرم عليهم القتل . وسألوه ـ بصفته رومانيا معتادا على القتل بحكم كونه امبرياليا ـ عما اذا كان يقبل القيام بالمهمة مقابل مكافأة سخية فقبل. واستقبل « سبتيموس » « بومبى » رفيقه القديم فى السلاح وصافحه بيد وباليد الاخرى أطاح برأسه واحتفظ بهذه الرأس ليقدمها هدية الى قيصر .

ويخاطب الاله « رع » مستمعيه من جديد قائلا : لذلك احذركم مرة أخرى ، انتم ، يا من يتمنى كل منكم أن يكون مثل « بومبى » . حذار فان الحرب ذئب وهى قد تهجم عليكم فى عقر داركم .

بديل البرولوج

زمرة من الضباط المصريين النبـلاء يلعبون القمـار ويستمعون الى نكات فاحشة من أحدهم فى ساحة على حدود سوريا فجر يوم من عام ٤٨ قبل الميلاد . ضابط مصرى جريح يصل وهو يعدو ليعلن أن قيصر وقواته

يتقدمون . يحدثهم عن الموقعة التي جرح فيها وعن براعة جنود قيصر في القتال . يقول انه باعتباره من حراس معبد « رع.» في « ممفيس » ذهب مع آخرين الى بطليموس اخي كليوباترا ليستفسروا منـه عما دعاه الى طـرد كليوباترا ، وعن كيفية التعـامل مع « بومبى » القـائد الروماني الذى نزل بجيشـه في شواطىء مصر بعد أن هزمه قيصر في « فارسـاليا » ، وأنهم علموا في الطريق أن قيصر قد وصل بدوره الى مصر في أعقاب « بومبى » ، وأن بطليموس قد قتل « بومبى » واحتفظ برأسه ليهديها لقيصر ، وأن معركة دارت بين القوات المصرية وقوات قيصر وأن الدائرة دارت فيها على المصريين فهزموا شر هزيمة ، وأن فلولهم ولت الادبار أمام الرومان الذين كانوا يقلون عنهم عددا بكثير ، وانه جاء ليشير عليهم بفتح أبواب القصر أمام قيصر الذى تقترب قواته من المدينة . يذهب قائد حرس كليوباترا للبحث عنها فلا يجدها في القصر ويعلم من وصيفتها أنها تعودت أن تخرج من القصر كل مساء وأن تذهب الى الصحراء للتحدث الى احد تماثيل ابى الهول بواسطة قططها المقدسة .

الفصل الاول

تمثال لابى الهول كالتمثال المعروف ولكنه اصغر منه، على الحدود المصرية السورية . ظلام يضيئه نور القمر . فتاة تجلس على التمثال وقد غلبتها سنة النوم . صوت نفير يأتى من بعيد . رجل يقترب من التمثال في خطى وجلة ويناجيه دون أن يتنبه لوجود الفتاة . الفتاة تصحو من نومها وتناديه فيظنها أبا الهول يتحدث . تخبره أنها كليوباترا ملكة مصر وتنصحه بأن يصعد الى جـوارها

والا أكله الرومان . يقول أنه هو نفسه رومانى فترتعد فرائصها من الخوف . يقول لها لكى يهدىء من روعها ان قيصر اذا ثبت له أنها أهل للحكم سينصبها على عرش مصر . تقوده الى القصر . يطلب منها أن تأمر احـد عبيد القصر باشعال المصابيح فتفعل . تصل وصيفتها « فتاتاتيتا » وهى امرأة متسلطة قوية الشكيمة فتعنف كليوباترا لأنها أصدرت هذا الامر دون أذن منها . الرومانى يذكر كليوباترا بأنها هى الملكة وبأن كلمتها يجب أن تكون نافذة على الجميع ويأمرها بطرد الوصيفة فتفعل ولكن الوصيفة لا تطيعها . الرومانى يأمر الوصيفة بالركوع أمام الملكة ويهددها بقطع رأسها ان لم تفعل فتركع وكليوباترا لا تصدق عينيها .

الرومانى يقول لها انها لن تكون جديرة بالملك الا اذا سيطرت على خوفها وواجهت قيصر بمفردها . تأتى الانباء بأن قيصر قد وصل وأن حرس القصر لاذوا بالفرار .. تفزع كليوباترا ولكن الرومانى يأمرها بالجلوس على العرش وبمواجهة الموقف بشجاعة . « فتاناتيتا » تقف الى جانبها وتشد أزرها . قيصر يجلس على العرش . كليوباترا تبدو من الرعب كمن ينتظر الموت . يدخـل الجنود الرومان ويصطفون أمام العـرش ويهتفون باسم قيصر . حيث تنفتح عينا كليوباترا على الحقيقـة ترتمى بين ذراعى قيصر .

الفصل الثانى

الاسكندرية . القصر الملكى . الملك الطفل « بطليموس ديونيزوس » البالغ من العمر عشر سنوات . نفر من نساء ورجال البلاط الملكى من بينهم « بوثينوس » الوصى

يليه و « ثيودوتس » معلمه و « أشيلاس » قائد جيشه .
بطليموس هو ابن الملك « أوليتيس » الاغريقى الذى نازعته
ابنته الكبرى « بيرنيس » على الملك وتربعت على العرش
مكانه فاستغاث « أوليتيس » بروما فأرسل اليه قيصر
قائدا رومانيا مع قوة عسكرية فهزم « بيرنيس » هى
وزوجها وقطع راسها وعاد الى روما . وبعد موت
« أوليتيس » انحصر الملك فى كليوباترا وفى أخيها الصغير
بطليموس . وجلس هذا الاخير على العرش ولكن كليوباترا
نازعته عليه . وكان هناك اتفاق بين قيصر وبين الملك
« أوليتيس » على أن يدفع الملك لروما مبلغ ١٦٠٠
« تالنت » (العملة الرومانية) اذا مكنته من التخلص من
اعدائه ولكن « أوليتيس » لم يسدد هذا الدين .

ويدور الحديث فى مجلس البلاط الملكى حول هذا
الموضوع وحول وصول قيصر الى مصر مع قوات لا يزيد
عددها عن ٣٠٠٠ جندى وألف فارس . يظهر قيصر ،
وهو الضابط الرومانى الذى شاهدناه فى الفصل الأول ،
وياوره « روفيو » وسكرتيره « بريتانوس » ، وهو
بريطانى . قيصر يحاول الا يبدو أمام الملك وبلاطه بمظهر
القائد المنتصر ويعامل الملك الصغير بعطف ويعامل باقى
اعضاء البلاط باحترام وأدب جم . يقول قيصر أنه بحاجة
الى بعض المال فيرد عليه الوزراء بأن خزانة الملك خاوية
تماما . يذكرهم سكرتير قيصر بأن المطلوب هو سداد دين
روما على مصر . يقول الوصى على الملك الصغير أن الحاح
قيصر سيضطرهم الى صهر كنوز المعبد وما فى خزانة
الملك من ذهب لدفع الدين المذكور وأن ذلك سيعرض
قيصر لغضب الشعب . قيصر يقول أنه يقبل ذلك .
عرض قيصر أن يحل مشكلة العرش ويطلب حضور

كليوباترا فتدخل مع وصيفتها . يفـــاجأ قيصر حين يعلم ان بطليموس وكليوباترا ليسا أخوين وحسب بل زوجين أيضـــا طبقا لتقاليـــد الأسرة المـــالكة . يطلب الوصي « بوثينوس » من قيصر ان يأخذ المـــال ويرحل ويترك للمصريين أن يسووا أمرهم بأنفسهم . يعلو هتاف رجال البلاط : « أجل .. أجل .. مصر للمصريين » . وهنا يذكر الضابط الرومانى « روفيو » الحاضرين بأنهم أسرى قيصر وأن قوات قيصر تحتل القصور والشواطىء والميناء الشرقية . الوصي والمعلم يذكـــران قيصر بدورهما بأنه لولاهم لكان الآن تحت رحمة « بومبى » وجيش الاحتلال الـــرومانى . يســـتدعى المجلس الضـــابط الـــرومانى « لوسيوس سبتيموس » . يقول هذا الضابط انه أطاح برأس « بومبى » أمام زوجته وابنه فى اللحظة التى وطئت قدماه فيها أرض مصر . يقرر « ثيودوتوس » أنه هو الذى أشار على « سبتيموس » باغتيال « بومبى » وأن المصريين قدموا لقيصر رأس منافســـه على امبراطورية العالم كهدية ويسروا له مهمة الانتقام . يقشعر بدن قيصر لهذا الحديث ويقول لهم ان الانتقام ليس من شيمته ويطلب من الضابط « سبتيموس » قاتل « بومبى » أن يغرب عن وجهه . ينصرف « سبتيموس » رغم اعتراض « روفيو » و « بريتانوس » اللذين كانا يريان أن يحتجزه قيصر منعا لشره .

ويسمح قيصر للملك ولجميع رجال البلاط بالخروج ويوصى الوصيفة « فتاتاتيتا » بالاهتمام بكليوباترا وبتعيين من يلزمون لخدمتها . تحدث كليوباترا قيصر عن « مارك أنطونى » الذى عرفته حين جاء الى مصر مع القـــوات التى أرسلتها روما لاعادة أبيها الى العرش وعن مدى اعجابها

بوسامته وعضلاته المفتولة وتطلب منه أن يستدعيه الى مصر لكى يتزوج منه . يدخل جندى رومانى معصوب الراس ويقول أن جيشا رومانيا بقيادة « أشيلاش » قد دخل الى المدينة وأن أهل المدينة ثاروا على جنود قيصر حين رأوا هذا الجيش فقتلوا اثنين من رفاقه وجرحوه هو فى رأسه . يستنتج قيصر من هذا أن جيش الاحتلال الرومانى الذى كان موجودا فى مصر عند مجيئه يوشك ان يحاصر قواته فيعطى الأمر بجمع عساكره عند الشاطىء بالقرب من السفن وباضرام النار فى السفن الراسية بالميناء الغربية وباحتلال جزيرة « فاروس » قرب ميناء الاسكندرية وبالاستيلاء على المسرح المجاور للقصر لأنه يشرف على الشاطىء وان يترك باقى مصر للمصريين . يدخل « بوثينوس » الوصى على الملك ويقول انه أحضر لقيصر انذارا بالحرب وأن قوات الملك بطليموس التى يزيد عددها عن عدد قواته بنسبة مائة الى واحد قد استولت على الاسكندرية . لا يعلق قيصر على ذلك ويخرج « بوثينوس » . ينظر « روفيو » من النافذة ويقول أن المصريين قد استولوا بالفعل على الميناء الغربية وانهم اشعلوا النار فى سفن قيصر . يدخل « ثيودوثوس » معلم الملك فى حالة من الهياج والانفعال الشديدين ويقول ان طامة أخطر من مقتل عشرة آلاف رجل قد وقعت فقد امتدت نيران السفن المحترقة الى مكتبة الاسكندرية واحرقتها . لا يكترث قيصر لهذا النبأ ويرفض أن يضحى برجل واحد أو بدلو واحد من الماء لاطفاء حريق المكتبة .

يسمح قيصر للمعلم وللوصى بالخروج رغم انه كان يستطيع أن يحتجزهما كاسيرين . ويشغل « ثيودوتوس » رجال جيش الاحتلال الرومانى المصرى باطفاء حريق المكتبة

فينتهز قيصر الفرصة وينزل الى الشاطىء ويستولى على جزيرة « فاروس » .

الفصل الثالث

رصيف امام القصر الملكى فى الاسكندرية . القصر يشرف على الميناء الشرقية . قوارب تصل بين القصر وبين جزيرة فاروس التى يوجد فيها الفنار . رصيف طوله خمسة اميال يوصل بين الجزيرة وبين البر . حارس يقف على الرصيف . أربعة حمالين مصريين يحملون سجاجيد عجمية ملفوفة تسبقهم الوصيفة « فتاتاتيتا » وشاب فى الرابعة والعشرين اسمه « أبولودوروس الصقلى » يقول للحارس انه أحضر السجاجيد للملكة . يأمره الحارس بأن يعود من حيث أتى . تحدث مشادة تعقبها مبارزة بين الحارس و « ابولودوروس » فقد أعطى قيصر تعليمات بعدم السماح لأحد بالمرور ولا بأخذ قارب الى جزيرة فاروس التى احتلها وبقى فيها مع « روفيو » وسكرتيره « بريتانوس » . تصل الملكة ويقدم لها « ابولودوروس » السجاجيد . تريد الملكة ان تأخذ قاربا الى جزيرة فاروس فيرفض الحارس وضابطه السماح لها بذلك ولكنهما لا يمانعان فى أن ترسل الملكة احدى السجاجيد الى قيصر مع رسالة منها بواسطة « أبولودوروس » . تذهب الملكة ووصيفتها الى القصر يتبعهما الحمالون بالسجاجيد ثم تعود الوصيفة والحمالون بسجادة ملفوفة . توضع السجادة بحذر شديد فى قارب ينزل فيه « أبولودوروس » ويتجه الى الجزيرة . يلقى « أبولودوروس » نظرة الى الغرب فيرى ان القوات المصرية

تتاهب لاستعادة جزيرة « فاروس » بالهجوم عليها برا عن طريق الرصيف وبحرا من الميناء الغربية . قيصر بجوار فنار الاسكندرية يبحث الموقف العسكرى مع ياوره وسكرتيره . يبدو له الوضع سيئا ويتوقع أن ينجح المصريون فى استرداد الجزيرة ترفع السجادة من القارب برافعة وتدحرج أمام قيصر واذا بداخلها كليوباترا . الموقف العسكرى يزداد سوءا والجنود المصريون يكادون يطبقون من كل جانب على قيصر وجماعته . السفن الرومانية راسية على مسافة ربع ميل من الفنار ولكن ما من سبيل للوصول اليها ، وقد غرق القارب الذى حمل كليوباترا و «أبولودوروس» . يقفز «أبولودوروس» الى الماء يليه قيصر وهو يحمل كليوباترا على ظهره ، ويسبح الاثنان حتى يصلا الى أحدى السفن الرومانية .

الفصل الرابع

المنظر الاول :

بعد ستة أشهر من الاحداث السابقة أى فى مارس سنة ٤٧ ق‌م كليوباترا فى تسمر بين عدد من سيدات البلاط والاماء . « بوتينوس » الوصى على بطليموس والذى لا يزال حبيسا فى القصر يرشو « فتاتاتيتا » لكى تدبر له لقاء مع كليوباترا . كليوباترا تأذن له بالمثول بين يديها . يلاحظ « بوتينوس » أنها تغيرت . تسأله لماذا طلب مقابلتها فلا يحير جوابا . تستنتج كليوباترا من ذلك ان ما رآه من تغير شخصيتها جعله يعدل عما كان ينوى أن يقوله لها . تخبره أنه اذا كان يتصور ان اخاها سيتولى الملك وانه هو سيصبح الآمر الناهى فى مصر فهو واهم وأن

قيصر سيحكم مصر فترة ثم يعود الى روما ويتركها هى خليفة له على مصر وان المدد الذى طلبه من روما يوشك على الوصول . تنهى كليوباترا المقابلة ويخرج « بوتينوس» وهو يتمنى لها الموت ويستمطر عليها لعنات آلهة مصر جميعا . يصادف وهو خارج « فتاتاتيتا » وتقوم بينهما مشادة يتهم كل منها الآخر خلالها بأنه يريد أن يحكم مصر باسم من يسعى لتنصيبه على العرش . يختم « بوثينوس » كلامه قبل أن يخرج منذرا بأن كليوباترا ، ذات القلب الرومانى ، لن تحكم مصر وهو على قيد الحياة .

المنظر الثاني :

حفلة عشاء يقيمها قيصر وتحضرها كليوباترا ، مساء نفس اليوم ، فى القصر الملكى . تتصدر المكان صورة كبيرة للاله « رع » . تنصب الموائد ويحمل اليها كل ما لذ وطاب وندر من الوان الطعام والشراب . خدم كثيرون . يصل «روفيو» ثم قيصر . يذكر «روفيو» لقيصر أن «بوثينوس» الوصى على بطليموس يرغب فى مقابلته ويشرح له أن « بوثينوس » لم يحاول الهرب من القصر وانه ، فى رأيه، فضل البقاء فيه للتجسس عليهم . يحضر « بوثينوس » ويبدى عجبه لكون قيصر استطاع ان يحمي القصر وعدة أمتار من الشاطىء فى وجه مدينة ثائرة وجيش كامل . تدخل كليوباترا فيتوقف « بوثينوس » عن الكلام ويطلب الانفراد بقيصر ليحدثه فى مسألة تعتبر بالنسبة له ـ أى لقيصر ـ مسألة حياة أو موت . لايسمح له قيصر بذلك ويأذن له بمغادرة القصر . « بوثينوس » رغم ذلك يقول لقيصر أن كليوباترا تنتظر بفارغ الصبر أن تستقل بحكم مصر وأنها فى عجلة من رحيله . كليوباترا تحتج

وترميه بالكذب ولكنه يؤكد أنه ستمع ما قاله منها شخصيا وأنها تريد أن يكون قيصر مخلب القط الذى ينتزع التاج من رأس أخيها ويضعه على رأسها . قيصر يقول له أن هذا شىء طبيعى . كليوباترا تنكر بشـــدة وتقسم أن ما قاله « بوثينوس » مختلق . قيصر يصحب «بوثينوس» الى الخارج ويطلب منه أن يقول لفريقه انه لا يرفض اتفاق معهم على تسوية معقولة للمسائل المختلف عليهــــا بينهم . تطلب كليوباترا من وصيفتها «فتاتاتيتا»ان تقتل«بوثينوس» قبل أن يغادر القصر . يدخل«أبولودوروس»الذى كان مدعوا الى الوليمة وينتقل الجميع الى المائدة . يسمع الحاضرون فجأة صرخة رجل يقتل ثم صوت شىء ثقيل يســـقط على رمال الشاطىء . تحاول كليوباترا ان تلهى الحاضرين عن فعلتها فتدعى مرة أن الصرخة هى صرخة عبد يجلد ومرة أن احدا قتل بيد جنود قيصر . أصوات غاضبة تصعد من الشاطىء ينزعج لها قيصر . تدخل « فتاتاتيتا » فى اللحظة نفسها وهى تترنح كالمخمورة . تهب كليوباترا من مجلسها وترتمى عليها وتوسعها عناقا وتقبيلا وتهيل عليها كل ما تحمله من حلى ومجوهرات . تتحامل « فتاتاتيتا » على نفسها وتتجه الى المذبح وترفع امام الإله « رع » . يسأل قيصر كليوباترا عن الخبر فتقول انها لا تعلم . همهمة الناس على الشاطىء تتصـــاعد كالزئير . يطلب قيصر من كليوباترا أن تصرف وصيفتها فتصرفها ويخرج « روفيو » وراءها . ينظر قيصر الى كليوباترا بحزن عميق ولا يبدو عليه الاقتناع بكلامها . يسألها عما حملها على هذه الفعلة النكراء فترتبك وتقسم انها لم تخنه . يسمع صوت نفير . يدخل « أبولودوروس » و « بريتانوس » وهما يجران « لوسيوس سبتيموس » . يقول « روفيو » ان الهياج فى المدينة بلغ أقصاه وأن الناس تريد أن تحطم القصر وأن تدفع بالرومان الى البحر . يســـأل قيصر

« سبتيموس » عما اغضب أهل البلد ويعلم منه انهم غضبوا لمصرع « بوتينوس » . تثور ثائرة قيصر لمقتل شخص كان أسيرا عنده . تتدخل كليوباترا وتقول أنهـا هى التى امرت بقتل « بوثينوس » لأنه حاول أن يتآمر معها على خيانته لدى « أشيلاش » وبطليموس وأنهـا رفضت عرضه وأنه لعنها واتهمها لدى قيصر بالخيانة وأهانها فى وجهها . يعلن « لوسيوس » انه على استعداد للانضمام الى قيصر اذا أمنه على حياته وأسند اليـه منصبا قياديا فى جيشه ، ويزف اليه بهذه المناسبة بشرى وصول المدد بقيادة « مترياديس برجامون » . يسر قيصر لهذا النبأ ويرجح أن يكون المصريون قد ارسلوا كـل جنودهم لمنع « مترياديس » من عبور النيل . يأخذ قيصر غطاء المائدة ويغمس اصبعه فى كأس نبيذ أحمر ويرسم على الغطاء خطة المعركة والضباط من حوله وفى جملتهم « أبولودوروس » الذى قبل أن ينضم اليه . يسمع صوت النفير أسفل القصر فيتجه قيصر وروفيو الى الـدرج لينزل الى الجنود . « روفيو » يترك قيصر لحظة ويمرق عبر الستائر وهو يفك رباط سيفه . يسمع صوت الجنود أسفل القصر وهم يهتفون لقيصر . تصيخ كليوباترا السمع وينطلق صوت النفير وتدق الطبول . تنادى كليوباترا « فتاتاتيتا » ولا مجيب . تقوم مذعورة وتشـد حبـل الستار ، واذا بالوصيفة مسجاة على مذبح الاله « رع » وقد جزت رقبتها وفارقت الحياة وأغرقت دماؤها حجر المذبح الابيض .

الفصل الخامس

الوقت ظهرا . امام القصر الملكى سفينة قيصر راسية على الرصيف فى الميناء الشرقية وقد غطتهـا الزينـات

وأكاليل الزهور . وصيفات كليوباترا فى أبهى ثيـــابهن واقفات عند درج البوابة . على طول واجهة القصر يقف حرس الملكة ونفس الضباط الذين رأيناهم فى المشـــهد التمهيدى قبل ذلك بستة شهور . « أبولودوروس » يشرح للضباط المصريين أن الملك بطليموس قد مات غرقا وأن القوات المصرية تهاوت حين هاجمها قيصر من ثلاث جهات ودفع بها الى النيل . يصل قيصر ومعه « روفيو » ووراءه « بريتانوس » فيستقبله الجنود بهتاف من الاعماق . يقول قيصر ان ساعة توديع مصر قد حانت ويعين «روفيو» حاكما على مصر من قبله ويودع « أبولودوروس » . قبـــل أن يصعد الى السفينة تقبل كليوباترا فى ثياب الحـــداد السوداء وتعتب عليه أنه لم يودعها . يسألها لماذا ترتدى ملابس الحداد فتحيله الى « روفيو » . يقول « روفيو » انه خشى أن تأمر كليوباترا وصيفتها باغتيال قيصر وأنه قتل الوصيفة ليكف شرها عن الناس .

يقـــر قيصر روفيو على قتـــل « فتاتاتيتا » ويعد كليوباترا بأن يرسل اليها « مارك انطونى » من روما ثم يقبلها فى جبينها ويصعد الى سفينته وســط هتـــاف الجنود .

هذه هى قصة المسرحية . وهى المسرحية الثانية من مجموعة تتكون من ثلاث مسرحيات جمعها المؤلف فى مجلد واحد وكتب لها مقدمة واحدة وأطلق عليها اسم « ثلاث مسرحيات للمتطهرين » . والمسرحيـــة الاولى فى هـــذه المجموعة هى مسرحية « تلميذ الشـــيطان » والثالثة هى مسرحية « هداية القبطان براسباوند » .

غرض المؤلف من كتابة المسرحية

معنى المسرحية الظاهر ليس محتاجا الى شرح . ولكن ما هو الدرس الذى اراد شو أن يلقيه بكتابتها وعرضها على الناس ؟ هذا سؤال لابد ان نسأله ما دام المؤلف يؤكد فى كل مناسبة انه لا يكتب لتسلية الناس بل لتفتيح أعينهم وما دام دارسو مسرحه يعرفون أن مسرحه كله مسرح تعليمى .

تتحصل أغراض المسرحية كما تتضح من نصها فى غرضين احدهما بديهى هو اظهار نواحى عظمة بطلها يوليوس قيصر وتتبع الاحداث التى صاحبت اقامته فى مصر وعلاقته بكليوباترا ، والثانى هو ما أورده المؤلف فى البرولوج على لسان الاله « رع » أى حث الانجليز الذى احتلوا مصر عام ١٨٨٢ - قبل كتابة المسرحية بستة عشر عاما - على أن يعتبروا بما حدث لروما القديمة والا يغتروا بقوتهم العسكرية وعلى أن يتركوا مصر للمصريين . اما فى مقدمة « ثلاث مسرحيات للمتطهرين » فقد تحدث المؤلف عن حالة المسرح البريطانى وعن غثاثة المسرحيات التى كانت تمثل فيه وتدور كلها حول قصة غرام رومانسى أو حسى بين رجل وسيم وامرأة جميلة يرتديان ملابس غاية فى الاناقة ويعيشان حياة مرفهة فى الصالونات والحدائق الغناء ، وذكر كيف أن تردده على المسارح كناقد مسرحى سبب له حالة مرضية كادت تودى به ، وأن رواد هذا المسرح كانوا من طبقة موظفى المكاتب والمحال التجارية والتجار اليهود الاغنياء واسرهم ، ولاحظ أن التجار الانجليز الاثرياء الانجيليين لا يترددون عليه وأن السبيل الوحيد الى اجتذابهم الى المسرح هو تقديم

مسرحيات تدور حول فكرة تخدم غاية اخـــلاقية من نوع الافكار التى تجتذب الناس من جميع الاعمار والطبقات والأمزجة الى الاجتماعات التى يتحـدث فيها خطبـــاء سياسيون أو وعاظ دينيون . وقال ان المحاولات التى بذلت لتقديم مسرحيات من هذا النوع لم تحسن الوضع كثيرا لان الاخلاقيات التى كانت تقدمها كانت كلها تعزز القيم الاجتماعية الموجودة وترمى الى ارضاء المتفـرجين لا الى تحريك عقولهم وقلوبهم ليعيدوا النظـر فى القيم المذكورة ويتطلعوا الى حياة أسمى وعالم أفضل . وأن قصص الف ليلة وليلة ، التى تعالج حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل بصـــــوره المختلفة معالجة طبيعيـــة واقعية ولا تجعل من الحب محور الوجود ، أكثر تشويقا وافيد لاخلاقيات القارىء من قصص المسرح الانجليزى . وأن القرن التاســـع عشر قد توج وثنية الفن بتاليه الحب واعتباره الاول والآخر والشيء الوحيد الكافى بذاته عما سواه . وشرح « شو » فى هذه المقدمة مذهبه ازاء الفن فقال أنه كان دائما ، فى موقفه من الفن ، من المتطهرين والمتطهرون . Puritans فى الاصل هم فريق من الانجليز البروتستانت الذين كانوا يعتبرون أن اصلاح الكنيســة تحت حكم الملكة اليزابيث (١٥٣٣ ــ ١٦٠٣) غير كاف والذين عملوا على الغاء الطقوس الدينية التى اعتبروها فاسدة أو تلك التى لم يرد لها ذكر فى الكتاب المقدس ، ثم تطور معنى هـذه الكلمة واصبح يشـير عموما الى الشخص المتمسك تمسكا شـديدا بالقيم الدينيـة أو الاخلاقية ، وأنه وان كان شديد الولع بالموسيقى وبعمـارة الكاتدرائيات الجميلة لا يرى بأسا فى نسف هذه الكاتدرائيات وآلات الأرغن التى بداخلها بالديناميت اذا تحولت الى

اداة لتاليه الجانب الحسي فى الانسان ، مهما صاح النقاد وشهوانيو الثقافة ومهما احتجوا . وتطرق « شو » في مقدمته الى شرح الاسباب التي تجعله لا يكتفي بكتابة المسرحيات بل يحرص على كتابة مقدمات لها والاسباب التي جعلته يوجه مسرحياته الثلاث التي تضمها هذه المجموعة الى « المتطهرين » ، ووضح عنصر التطهرية فى مسرحية « تلميذ الشيطان » وسلم بأن هذا العنصر ليس واضحا للوهلة الاولى فى مسرحية « قيصر وكليوباترا » التي ليس لها صلة سياسية ظاهرة بالتطهرية ، ونقد مسرحية «أنطوني وكليوباترا» لشكسبير لجانبها الرومانسي وقارن بين طريقته وطريقة شكسبير فى معالجة هذا الموضوع وقال ان شكسبير قد فشل فى تصوير قوة انسان من نوع قيصر وأنه غض من قدره ليرفع من شأن قاتله « بروتوس » ، وتعرض بأطناب لنقد النقاد الذين هالهم نقده هو لشكسبير ثم قال أنه حاول في مسرحيته أن يصور قيصر فى صورة عصرية وأن يعرض الحقائق القديمة فى ضوء جديد منبها الى أنه لم يكن رائدا فى هذا المنهج والى أن كثيرين غيره قد سبقوه فيه .

هذا — باختصار — هو ما قاله « شو » فى تقديمه لمجموعة « ثلاث مسرحيات للمتطهرين » . وقد شرح بعض النقاط الخاصة بمسرحية « قيصر وكليوباترا » فى تعليق الحقه بالمسرحية تحدث فيه عن أشياء كثيرة مثل العلاج الذى اقترحته كليوباترا فى المسرحية لصلعة قيصر وعدم تقدم البشرية على مر القرون وحقيقة ان الانسان كلما ازداد جهله ازداد اقتناعا بأن عالمه الضيق هو قمة الحضارة وذروتها العليا ، وانه ليس هناك ما يسمح بافتراض أن تقدما من أى نوع قد حدث منذ عصر قيصر

وكليوباترا . ثم تعرض المؤلف فى نبذات سريعة لشخصيات كليوباترا « وبريتانوس » وقيصر فى المسرحية وقال أنه تعمد الا يستقى معلوماته عن قيصر من كتابات قيصر نفسه ، وأن عظمة قيصر تتجلى خارج ميدان المعركة أكثر مما تتجلى داخله .

كلام كثير يعالج مواضيع عديدة ويعرض أفكارا قيمة للمؤلف ، ولكنه لا يغير الانطباع الأول لدى القارىء بأن غاية المسرحية هى ابراز نواحى العظمة فى شخصية قيصر وحث الانجليز على الجلاء عن مصر .

ومع ذلك فان كلمة صدرت من برنارد شو وفروقا لاحظها بعض الكتاب بين قيصر المسرحية وقيصر الذى قرءوا ترجمته فى كتب التاريخ جعلتهم يحققون أكثر فى سماته التى وصفها المؤلف ويستشفون وراء الغرض الظاهر من المسرحية غرضا خفيا .

اما الكلمة فهى هذه العبارة التى وردت فى خطاب وجهه برنارد شو الى مسز ريتشارد مانسفيلد (التى مثلت هى وزوجها بعض الادوار فى مسرحيات « شو ») ٣ مايو ١٨٩٩ والتى يقول فيها :

« قيصر وكليوباترا » هى أول وصف مسرحى لأعظم رجل فى التاريخ .

واما الفروق التى لوحظت بين قيصر المسرحية وقيصر التاريخ فيحتاج ايضاحها الى أن نعرف اولا من هو قيصر المسرحية .

قيصر المسرحية

صورة قيصر فى المسرحية ، كما تستخلص من كلامه ومن طريقته فى التصرف فى كل موقف وفى معاملة كل

شخص من الاشخاص ، هي صورة رجل عظيم سـواء في صفاته العامة أو في صفاته الخاصة • وقد شهد بعظمته كقائد عسكرى فى المسرحية كل من عرفوه عن قرب • شهد له بها الاله « رع » كما شهد له بها جنوده ومعاونه «روفيو» وكليوباترا و « لوسيوس سبتيموس » و « بوتيئوس » : كل منهم تحدث بلغته الخاصة ومن زاويته الخاصة عن عظمة قيصر وعلو قدمه •

وأول هؤلاء الشهود هو الاله « رع » ، اله الشمس ، الذى عبده الفراعنة لايمانهم بانه مبدد الظلام وباعث الحياة فى الوجـود • وقد عبر هذا الاله عن عظمة قيصر القائد في « برولوج » المسرحية فقابل بينه وبين بومبى الذى اختار طريق العسكرية « وطريق العسكرية هو طريق الموت بخلاف طريق الالهة الذي هو طريق الحياة » ، وقال « ان يوليوس قيصر كان فى صف الالهة » ثم « ان الالهة ابتسمت لقيصر » فجعلت النصر حليفا له • وقد حالف النصر قيصر بالفعل فى مصر فانتصر فى معركة النزول التى وصفها « بل عفريس » للحرس فى « بديل البرولوج » ثم صمد بقوته الصغيرة امام المصريين فى الفصل الثاني حين هاجموه رغم ان كل رجل من رجاله كان يقابله مائة من رجالهم • ثم نجح ، بعد ان انضم اليه « مترياديس برجام » بقواته ، في هزيمة الجيش المصرى الروماني بقيادة « اشيلاس » الرومانى ، فى موقعة النيل •

وأما جنود قيصر فان ايمانهم بعظمته هو الذى جعلهم يستهينون بالموت ويكسبون المعارك • وقد وصف « بل عفريس » بلاءهم تحت قيادة قيصر فى المعركة التى اشترك هو فيها حين وصل قيصر الى ارض مصر وصورهم صورة

ملأت قلوب حرس القصر رعبا • وظهرت تشكيلة من هؤلاء الجنود في آخر الفصل الاول وهي تهتف : « يحيا قيصر »، وقد اصـــبح جنود وجيش قيصر كلهم « قيصريون » حتى في وجه جمهورية روما من فرط محبتهم لقائدهم •. ثم جعل المؤلف « ابولودوروس » يقول فى أول الفصل الخـــامس لحرس القصر ان قيصر لايزال في ميدان السوق وانه هو ـ أي « ابولودوروس » ـ لم يتحمل هتافات الجنـــود وهم يحيطون بقيصر و « ان المرء يشـــعر بعد نصف ساعة من حماس الجيش بالحاجة الى قليل من هواء البحر » • واول من يقدر عظمة القائد الجنود •

وكان « روفيو » بطبيعة الحـــال ، لانه ألصـــق الناس بقيصر ، أكثرهم ايمانا بعظمته • وقد عبر عن هذه العظمة تعبيرا مختصرا بالارقام ، فقد ســـأل القـائد الرومانى « اشيلاس » قائد الجيش المصرى الذى كان قد جاء الى مصر مع جيش « مارك انطونيو » ثم قرر البقاء فيها والذى كان يرى انه اقوى من قيصر الذى لم تكن قواته تزيد عن ٤٠٠٠ جندى : « هل جنودك من الرومان ؟ ان لم يكونوا كذلك فان عددهم لا يهم بشرط الا تكون النسبة بينكم وبيننا أكثر من خمسمائة الى عشرة » • وظاهر هذا الكلام ان الجنـــدى الرومانى يساوى خمسين جنديا من المصريين (اليونانيين) ولكن « بوثينوس » فهم ما كان يعنيه « روفيـــو » وهو ان قيصر يستطيع بقوته الصغيرة ان يتغلب على المصريين ولو كان جيشهم أكبر من جيشه بنسبة ٥٠ الى واحد فرد بأن قيصر سبق ان هزم وأن من الممكن ان يهزم من جديد •

وقد عبرت كليوباترا بعبارة بليغة مختصرة عن عظمـــة قيصر العسكرية فى حديثها مع بوتينوس فى الفصـــــل

الرابع فقالت له : « قيصر سيفترسك افتراسا انت « واشيلاش » واخى كما يفترس القط الفئران • كذلك فانه سيلبس هذه الارض ـ ارض مصر ـ كما يلبس الراعى رداءه » • وقالت ان جميع من فى مصر عبيد لقيصر واسرى عنده سواء ارادوا أم ابوا •

وحتى « بوتينوس » ، الوصى على الملك الصغير واهم شخصيه مناهضه لكليوباترا ، اضطر فى النهايه الى الاعتراف بعظمة قيصر • لقد كان ، رغم اخذه بنصيحة « لوسيوس سبتيموس » فى تفضيل قيصر على « بومبى » ، فى شك من عظمه هذا القائد فهو يقول لروفيو فى الفصل الثانى : « منذ اسابيع قليلة كان قيصر يطلق ساقيه للريح لواذا بحياته امام « بومبى » ، وقد يفعل ذلك بعد شهور امام الملك الافريقى « كاتد » ملك نوميدا » • ولكنه مالبث ان غير رأيه فنراه يقول لقيصر فى الفصل الرابع : « انا لا ادرى اى آلهة عجيبة مكنتك من الدفاع عن القصر وعن مساحه يارذات قليلة من الشاطىء فى وجه مدينة وجيش • لقد عرفنا منذ ان قطعنا عنكم مياه بحيرة مريوط ومنذ ان حفرتم ابارا فى البحر المالح واخرجتم منها دلاء من الماء العذب ان الهتكم لا تغلب وانك صانع معجزات » • وليس هناك اعتراف بالعظمة ابلغ من هذا الاعتراف •

اما « لوسيوس سبتيموس » فقد جاءت شهادته بعظمة قيصر فى مناسبتين : مرة حين استشاره المصريون الذين علموا بوصول بومبى الى بلدهم بعد هزيمته فى موقعة « فارساليا » ووجدوا انفسهم فى موقف يحتم عليهم الاختيار بين بومبى وقيصر فأشار عليهم باختيار قيصر ، ومرة ثانية فى الفصل الرابع حين قرر « لوسيوس

سبتيموس » الانضمام الى قيصر • واذا كان صحيحا ان علمه بوصول « مترايادس برجام » كان من العوامل التى رجحت لديه هذا القرار فالذى لاشك فيه ان ما اظهره قيصر من براعة في مواجهة الموقف حين هاجمه المصريون ثم حين قطعوا عنه الماء جعله يزداد اقتناعا بعظمته وبأن من مصلحته ان يكون معه لا عليه •

وكان قيصر المسرحية ايضا سياسيا عظيما • وكانت سياسته تقوم على قاعدة ذهبية هى تغليب الحلول السلمية على الحلول العسكرية وعدم اللجوء الى الحرب الا للضرورة القصوى • وقد ظهرت مقدرته السياسية فى المسرحية فى موضعين : بصدد حل مشكلة العرش المصرى ثم فى حماية جيشه الصغير من هجوم المصريين •

لقد كان الخلاف على عرش مصر بين افراد الاسرة المالكة مشكلة سالت بسببها دماء كثيرة قبل زمن المسرحية وقامت من ورائها حرب أهلية وانقسم الجيش المصرى (اليونانى) بشأنها فريقين ، فريق يؤيد الملك «اوليتيس» وفريق يؤيد ابنته « برنيس » التى كانت تنازعه على العرش ونجحت فى خلعه وتولى الملك بدلا منه •

وبلغ الامر بالملك اليونانى الى الاستنجاد بروما التى ارسلت جيشا بقيادة « اولوس جابينوس » هزم «برنيس» التى لقيت حتفها هى وزوجها ، واعاد « اوليتيس الى العرش • ثم مات هذا الملك فتنازع على العرش بعده ابنه بطليموس وابنته كليوباترا وكانت بينهما حرب آخرى • واستمر هذا النزاع سنة وكان من الممكن ان يتبوأه الاثنان ـ بطليموس وكليوباترا ـ مشاركة • ولما قالوا له

ان لبطليموس اخا واختا صغيرين قال نزوجهمـــا ونهدى لهما جزيرة قبرص •

كذلك استطاع قيصر المسرحية بدهائه وســـعة حيلته وبحرصه على محاسنة الناس وتجنب استثارة حفيظتهم من جهة أخرى ان يمنع المصريين من الهجـــوم على قواته بعد الهجوم الاول الفاشل ، الى ان وصل « برجام » بجيشه •

ومن الصفات التى تتصـــــل بعظمة قيصر المسرحيـة الحربية والسياسية فى الوقت ذاته ، والتى تظهر كذلك فى علاقاته الخاصة ، سماحة نفسه وكرهه للانتقام وخلو قلبه من الضغينة وعفوه عند المقدرة • وقد ركز برناردشو فى وصفه لقيصر على هذه الصفات تركيزا شديدا وجعلها سمات بطله التى يتميز بها أكثر مما يتميز بأى صـــفات اخرى ، وتحدث عن موقف قيصر من الانتقـــام فى ثلاث مناسبات كانت ـ وهذا شىء يستحق الذكر ـ المناسـبات الوحيدة التى استسلم فيها لانفعال اخرجه عن طوره •

اما المناسبة الاولى فكانت فى الفصل الثانى حين وصـــل « لوسيوس سبتيموس » قاتل « بومبى » الى القصر الملكى الذى احتله قيصر وقال « ثيـــودوتوس » الـــــوصى على بطليموس لقيصر ان المصريين قد سمحوا للوسيوس بقتل « بومبى » للانتقام من عدوه • وكان المصريون يحســبون انهم قد صنعوا لقيصر بفعلتهم هذه جميلا ســـيحمده لهم فاذا بالاشمئزاز والالم يستبدان بقيصر واذا به يستشيط غضبا ويصيح بهم :

« الانتقام •• الانتقام ! اى ثمن ، اذا سمحت لى نفسى بالانتقام ، كان يمكن ان اتقاضاه منكم مقابل دم هذا الرجل المقتول » • ثم مضى يذكر حسنات بومبى وامجاده وعلاقته

به كقريب وصديق قديم وكيف انه كان سـيد روما ٢٠ عاما ووارث النصر ٣٠ سنة وانه هو ـ قيصر ـ قد شارك كروماني في امجاده وان القـدر الذى ارغمه على قتـاله لسيادة العالم لم يكن من صنعهما • ثم اتجه اليهم وسألهم في ضيق : « هل انا يوليـوس قيصر ام انا ذئب مفترس لكي تلقوا الى برأس هذا العجوز ، هذا الغازى الذى غطيت رأسه باكاليل الغار ، والرومانى العظيم الذى اطاح برأسه هذا الوغد الزنيم ؟ وتطلبون منى بعد هـذه الفعلة امتنانا واعترافا بالجميل ؟ « ولم يستطع ان يتحمل منظر القـاتل فأمر « لوسيوس سبتيموس » بأن يغرب عن وجهه •

وثار قيصر المسرحية مثل هذه الثورة فى الفصل الثالث حين جاءه سكرتيره « بريتانوس » بحقيبة عثر عليها تحتوى على جميع الرسـائل المتبـادلة بين فريق بومبى وجيش الاحتـلال الرومانى في مصر وقال فى جذل : « اعداؤنا وقعوا في ايدينـا » • وكان ينتظـر ان يسر قيصر لانه سيتمكن عن طريق الرسائل المذكورة من معرفة اسماء كل من ناصبوه العداء ومن الانتقام منهم فاذا بقيصر يأمره بحرق هذه الرسائل ويقول انه لا يريد ان ينفق ثلاث سنوات من حياته فى التنكيل بأشخاص يرجح ان يصبحوا اصدقاء له حين يثبت لهم ان صداقته أثمن من صداقة اعـدائه • ثم يسأل « بريتانوس » كما سأل رجال البـلاط المصرى : « اتحسب انى كلب (بول دوج) ابحث عن معركة لمجـرد اثبات قوة فكي ؟ » • وحين ذكره سكرتيره بشرفه وشرف روما قال انه لا يقدم ضحايا من البشر لشرفه كما يفعـل الانجليز •

أما المناسبة الثالثة التى رفض فيها قيصر المسرحية مبدأ

الانتقام فكانت في الفصل الرابع حين حاولت كليوباترا ، واصوات الشعب الغاضب لمقتل « بوتينوس » تتصاعد من أسفل القصر ، ان تشرح البـــواعث التى جعلتهـــا تأمر « فتاتاتيتا » بقتله وتسأل الحـاضرين : « أكنت محقة فى الانتقام لنفسى ؟ » فوافقها الجميع • هنا استدار لها قيصر وقال وهو فى قمة الغضب : « هؤلاء الذين يقرعون بوابتك هم أيضا ممن يؤمنون بالانتقام والطعن • لقد قتلت زعيمهم فأصبح من حقهم ان يقتلوك • اذا كان لديك شك في هذا فسلي مستشاريك الاربعة هؤلاء • ثم باســـم ذلك الحق (وينطق هذه الكلمة بازدراء شــديد) أفلن يكون على ان اقتلهم جزاء قتلهم ملكتهم ، وان يقتلنى بدورى ابناء بلدهم لانى غزوت وطنهم ؟ وهل تملك روما ان تفعل اقل من ان تقتل هؤلاء القتلة كذلك لترى العـــالم كيف تنتقم رومـا لابنائها ولشرفهم ؟ وهكذا الى اخر التاريخ سيولد القتـــل القتل وسيكون ذلك دائما بأسم الحق والشرف والسلم ، الى ان تتعب الالهة وتخلق جنسا آخر يستطيع ان يفهم •• فلتعط ملكة مصر الآن اوامرها بالانتقام ولتتخذ اهبتهـــا للدفاع فقد ادارت ظهرها لقيصر » •

وكان قيصر المسرحية يأمر باطلاق سراح الجنود الذين يأسرهم في المعارك ولا يلقى سمعا لروفيو الذى ذكره أكثر من مرة بأن هؤلاء الجنود يعودون للقتال من جديد وهدد بأنه لن يأسر جنديا بعدها بل سيقطع رأس كل اسير يقع فى يده لئلا يضطر الى محاربته كرة أخـرى • وقيصر فى المسرحية يطلق سراح الملك ورجال البلاط فى الفصـــل الثانى وقد كانوا اسراه كما انه فى الفصـــل الرابع يطلق سراح « بوتينوس » قبل ان تأمر كليوباترا بقتله ويقول له وهو يشيعه : قل لاصحابك اننى لا امانع فى الاتفاق على

تسوية معقولة لشئون البلد • وكان حين يفرج عن الاسرى يفعل ذلك بوازع من سجيته ثم لاعتقـــاده ان الاجـراءات الانتقامية لا تحقق فائدة لاحد ، بل هي تطـــلق سلسـلة مستمرة من ردود الفعل يزداد بها اوار الحرب اشــتعالا وتذهب ضـــحيتها اعداد لا تنتهي من الارواح • وقيصر المسرحية لا يحب الحرب ويرى ان حقن الدماء ســـبيل السلام • وقد قال لروفيو ــ حين نبهه ، في الفصل الرابع، وهو يسمع الجماهير الغاضبة ، الى ان العـــدو عند ابواب القصر ، والغضب يملأ جوانحه : « ومن الذى اوقفه عنـد البوابة وكفاكم شره طيلة هذا الشـــهر ؟ جنوني ــ كمـا تتصور ــ ام حكمتكم ؟ في هذا البحر المصرى الذى اصطبغ بلون الدم الاحمر •• اى يد هي التى ابقت رءوسـكم جميعا فوق الامواج ؟ » • ثم يلتفت الى كليوباترا ويســـتطرد : « ومع ذلك فعندما يقول قيصر لواحد من الناس : « اذهب ايها الصديق ، فانت طليق » اذا بكم ، وانتم تتشبثون من أجل حياتكم الصغيرة بسيفى ، تجرؤون على التسلل وراءه وعلى طعنه فى ظهره • واذ بكم انتم ، ايها الجنود والسادة والتابعون الامناء ، تنسون صفتكم وتصفقون لهذا الاغتيال الغادر وتقولون « اخطأ قيصر » • بحق الآلهة ، كـم وددت لو فتحت يدى وتركتكم جميعا تغرقون فى الطـــوفان • وتهدأ ثائرة قيصر قليلا حين تســـتعطفه كليوباترا وحين يطلب منه « روفيو » الا يؤاخذ مجمـوعة من الحمقى مثلهم على ما قالوا ، ويمضى فى اثبات ان الجنوح الى السلم هـو خير الحلول فيسأل « لوسيوس سبتيموس » (الذى انضم اليه) « هل كان سحرا منى ان احول دون هجـوم جيشك وهذه المدينة بأكملها علينا طوال هذا الوقت ؟ » ويضيف : « بالامس لم تكن ثمة حزازة بينهم وبينى تجعلهم يخاطرون

بأرواحهم فى حرب ضدى . اما اليوم ، بعد ان اتينا اليهم جثة بطلهم الذى أزهقنا روحه ، فقد آلى كل رجل منهم على نفسه ان يطهر هذا العش ، عش القتلة ، وما نحن الا قتلة ، ممن فيه » .

هذا ومن صفات قيصر العـــامة الاخرى فى المسرحية احساسه الشديد بالمسئولية وحرصه على اداء واجبه ولو على حساب مشاعره وراحته وآرائه الخاصة . انه يشـعر بالمسئولية عن روما ولو انه لا يكن لها ولا للقائمين بالامر فيها احتراما كبيرا . وهو يشعر بالمسئولية حيال جنوده ، وقد قال لكليوباترا مرة ولبوتينوس مرة اخرى انه مسئول عن حياة كل جندى من جنوده . وكان اول خـاطر خطر على باله فى الفصل الثـــالث حين علم ان المصريين هددوا موقعه بنزولهم فى الميناء الغربية بين قواته وبين المتاريس ، من تحصين جنوده فقد قال فى لهجة شـــديدة : « قتلتهم » ، وندم لانه وضعهم فى مأزق يعرض ارواحهم للخطر . وهو حريص على اداء واجبه . فهو يعطى تعليماته فور وصـوله لتحصيل الضرائب التى قصرت حكومة الملك فى جبايتهـا واستيفاء دين روما على الملك مما يثير استغراب «بوتينوس» الذى يتساءل كيف يشغل قاهر العالم نفســـــه بأمر تافه كجباية الضرائب . وهو يسوى مشكلة العرش للمصريين ، وهو يهتم بسلامة الجنود ويدبر امر الجيش حين يحاصره المصريون ، وهو يخطط للمعارك ويخـــوض غمار الحرب بنفسه . وقد ثلم سيفه من الضرب به فى معركة « تساليا » فطلب من سكرتيره ان يكلف من يشحذه استعدادا للمعركة التالية . وحين قالت له كليوباترا ان الملوك لا يعملون وان اباها لم يكن يعمل وانه مع ذلك كان ملكا عظيما سخر منها

وقال انه هو يعمل وانه هو الذي ارسل الى ابيها من يعاونه على استعادة عرشه •

وقيصر في المسرحية مشغول دائما بعمله فهو في الفصل الاول يجلس كليوباترا على العرش ، وفي الفصل الثاني يقابل الملك ووزراءه ويبحث معهم مسائل الضرائب والعرش ثم يدير المعركة بعد ان شن المصريون الحرب عليه ، وهو في الفصل الثالث ـ فصل الفنار ـ يدير معركة أخرى ، وهو في الفصل الرابع ـ فصل الوليمة ومقتل « بوتينوس» ـ يخطط لمعركة النيل بعد ان علم بقرب وصول جيش « مترياديس برجام » • وهو أخيرا ، في الفصل الخامس ، لا يصعد الى السفينة التي قرر ان يغادر مصر على متنها الا بعد ان يودع جنوده في ساحة السوق ويحل مشكلة اليهود ويقابل الكهنة والا بعد ان يعين نائبا عنه في حكم مصر مع كليوباترا •

ولم يكن قيصر المسرحية يسمح لشيء بأن يشغله او يصرفه عن عمله او عن النهوض بمسئولياته • وقد حرص « شو » على ابراز هذه الناحية بالذات في طبع قيصر والتشديد عليها واختار في شأنها ان يسلط الاضواء على علاقة قيصر بكليوباترا •

لقد جعل المؤلف سن كليوباترا في المسرحية اقل من سنها الحقيقي بخمس سنوات فالمعروف تاريخيا انها كانت حين وصل قيصر الى الاسكندرية في الواحد والعشرين من عمرها • وقد تساءل دارسو المسرحية عن السبب الذي جعل « شو » ينقص سنها ورجح بعضهم ان يكون قد فعل ذلك لتتضح بصورة افضل معالم التطور الذي حدث في شخصية كليوباترا نتيجة اتصالها بقيصر • وقد يكون في هذا

التفسير نصيب من الصحة ، على من الجائز أيضا ان يكون « شو » قد جعل كليوباترا فى السادسة عشرة ، كما سنرى ، لغرض يتعلق بمعنى المسرحية الخفى ٠

ومهما يكن من أمر فان ما ظهر فى المسرحية من علاقة قيصر بكليوباترا لم يكن جانب العشق المعروف تاريخيا انه اسفر عن ميلاد طفل ، بل كان جانبا آخر ٠ وقد نبه المؤلف المتفرجين فى « البرولوج » على لسان « رع » الى انهم اذا كانوا قد جاءوا الى المسرح لمشاهدة قصة امرأة لا اخلاق لها فانهم لن يروا سوى طفلة تضربها مربيتها بالسوط ٠ وكان الجانب الذى عرضه فى هذه العلاقة هو جانبها الانسانى بين رجل محارب تجاوز الخمسين تثقله المسئوليات وصبية تعرضت طفولتها لتجارب مؤلمة بسبب تنازع افراد اسرتها على الملك ووجدت نفسها طرفا فى صراع دام مع اخيها كصراع ابيها مع ابنته ولم تجد من يحدب عليها ويأخذ بيدها ويهذب أخلاقها ٠ لقد حباها قيصر بعطف شديد وحاول ما استطاع ان يصلح خلقها ويقوم اعوجاج طبعها وقسوتها ونزعتها الشريرة ويهيئها فى رفق لمسئوليات الحكم ٠ علمها الشجاعة اولا وعدم الخضوع لمربيتها ، وعلمها بعد ذلك ، كما لاحظت وصيفاتها فى الفصل الرابع ، الجدية والتعمق والنظرة الفلسفية ٠ وقد لاحظ «بوتينوس» بنفسه ماسرت به الاشاعة من ان كليوباترا تغيرت ونضجت وصارحها بذلك فقالت ان اى شخص يتحدث يوميا مع قيصر لمدة ستة اشهر لابد له ان يتغير ٠ وسألها « بوتينوس » عما اذا كان قيصر قد شغفها حبا كما يقول الناس ، فكان جوابها انها تود لو كان الامر كذلك ،

وقالت : « حين كنت حمقاء كنت افعل ما احب ·· اما الان وقد علمني قيصر الحكمة فليس المهم ان احب او لا احب · انني افعل ما يجب ان افعله وليس لدى وقت للاهتمـــام بنفسي ·· هذه ليست هي السـعادة ، ولكنها العظمـة · ولو ان قيصر ذهب ففي اعتقادى انني اســتطيع ان احكم المصريين فان مكانته مني هي مــكانتي من الحمقى الذين يحيطون بي » · وسألها « بوتينوس » من جديد : « وهو · الا يحبك » ؟ فأجابته : « يحبني » « يابوتينوس » ؟ فقيصر لا يحب احدا · من هم اولئك الذين نحبهم ؟ انهم ليســوا سوى من لا نكرههم · كل الناس غرباء واعداء بالنسبة لنا ماخلا اولئك الذين نحب · ولـكن الامر عند قيصر يختلف عن هذا · هو لا يكره احدا · وهو يصـــادق الجميع كما يصادق الكلاب والاطفـــال · وعطفه على عجب عجاب · لا امى ولا ابى ولا مربيتي اولوني من حنوهم ما اولاني هو ولا كشفوا لى عن سرائرهم بحرية كما فعل هو » · وســألها بوتينوس : « ولكن أليس هذا هو الحب ؟ » فقالت :

« كيف يكون هذا هو الحب وهو على استعداد ليفعل هذا مع اول فتاة يصـــــادفها في طريق عودته الى روما ؟ اسأل عبده « بريتانوس » ·· لقد ابدى حيـاله من العطف ما ابداه حيالى · بل اسأل جـواده · ان طيبته لا ترجع الى شيء في شـــــخصى بل ترجع الى طبيعته هو ·» وســألها بوثينوس من جديد عما اذا كانت تحبه فقـــالت : « وهل يستطيع انسان ان يحب الها ؟ » وذكرت له انها تحب رجلا آخر ·· رجلا يحب ويكره ويســـتطيع ان يجرحها كما تستطيع هي ان تجرحه ، وقالت ان قيصر يعرف ذلك وانه وعد بأن يرسله الى مصر اكراما لها ·

هذه اذن هي طبيعة العلاقة التي كانت تربط قيصر في المسرحية بكليوباترا : علاقة حدب ورعاية من جانب قيصر لا تختلف كثيرا عن علاقته بسائر البشر والمخلوقات ، نابعة من قلب ملؤه الطيبة والرحمة • قلب اب عطوف لا قلب عاشق ولهان •

وكان قيصر ـ لان كليوباترا كانت تظن الرومان قوما متوحشين من آكلي البشر ـ يهددها مغابثا بأن يأكلها ان هي عصته او لم تتبع توجيهاته • وكان يصبر على نزواتها ومشاكساتها ويأنس الى مجلسها حتى حين تتطاول عليه كما يتطاول الاطفال على والديهم ، كما فعلت حين قالت له انه حالم وعاطفي او انها هي التي صنعت منه ملكا او انه لو سمع كلامها لتعلم بسرعة كيف يحكم او انها ليست قيصر الذي يسمح حتى للعبيد باهانته • ولم يكن يضيق بها حتى اذا تمادت في التدلل وفرضت نفسها عليه كما يفعل الاطفال احيانا بلا سبب او لانهم يحسون بالامن في صحبة الكبار او يريدون ان يثيروا اعجابهم بذكائهم أو اعمالهم • وحتى حين وجدها تصل اليه في الفنار ورحى المعمعة دائرة بين قواته وبين المصريين لم ينهرها ولم يعنفها ولم يجرح شعورها بل تحملها وطمأن فزعها وهاودها كما فعل في الفصل الثاني حين ارادت ان تبقى معه أصرت على ان يقول انه هو الذي يريد منها ان تبقى • وحتى حين علم انها امرت بقتل « بوتينوس » من ورائه لم يبطش بها بل سألها عما اخافها لدرجة جعلتها تقدم على مثل تلك الفعلة •

على ان صبر قيصر وحدبه على كليوباترا لم يمنعانه من ايقافها عند حدها حين كان وجودها يعطله عن اداء واجباته •

وقد قال لها في الفصل الثاني عند الفنار انه ليس هناك من بين الجنود الذين اولوه ثقتهم جندى واحد لا يعتبر هو ان يده اقدس من رأسها ، وان حياتها تلك الساعة ليس لها عند أحد غيرها قيمة ما • كذلك فانها جين سألته في الفصل الرابع وهو مشغول مع رجاله باعداد العدة للمعركة القادمة : « هل نسيتني ؟ » أجابها : « انا الآن مشغول ياصغيرتي •• مشغول وحين اعود ستسوى امورك • وداعا » • وكان حين يصدها يفعل ذلك برفق ولكن بحزم كما يفعل الاباء مع اطفالهم حين يتجاوزون الحد • كذلك فان محبته لها لم تكن تعمى بصره عن عيوبها ولا تحمله على ان يمنحها من تقديره اكثر مما تستحق او ان يفرط في مسئولياته من أجلها • لقد كان بوسعه منذ البداية ان ينصبها على عرش مصر دون أخيها الصغير ، ولكنه كان يعلم ان هذا معناه زيادة شقة الخلاف بين فريقها وفريق أخيها وزيادة اضطراب الاحوال في البلد في الوقت الذى كان يسعى فيه لتهدئة الخواطر ورأب الصدع بين الطرفين المتنازعين • ولذلك جعل ملك مصر مشاركة بين الاثنين • وكان بعد ذلك يدرك تماما ان كليوباترا رغم كل ابتساماتها وتوددها ورغم ما تظهره له من تعلق بشخصه تتمنى رحيله لتنفرد بحكم مصر • وقال لبوثينوس حين وشى له بهذه الحقيقة ، وهو يظن انه في غفلة عنها ، انها امر طبيعي كالشمس التي تشرق كل صباح • وحين حاولت كليوباترا ان تكذب « بوثينوس » واقسمت انه كاذب قال لها قيصر انه لايصدقها ولو اقسمت الف مرة ، ولا يثق بها • ثم ابتعد مع اصحابه برفق لكي يترك لها فسحة من الوقت لاستعادة حالتها الطبيعية • وكان يفهم انها من النوع المراوغ رغم طفولتها الظاهرة وانها تحاول

بجميع الوسائل ان تستخدمه ضد اخيها ولكنه كان يتخذ جميع قراراته العسكرية بمفرده ولا يقيم لأرائها ولا لنواياها العدوانية حيال اخيها اى وزن • وبالرغم من ان كليوباترا حاولت ان توغر صدره على « بوتينوس » بعد ان اهانهـا واتهمها امامه ، لكى يقتله او يعلن الحرب على فريقه ، فقد اخلى قيصر سبيل « بوتينوس » وودعه بكلمات ودية • ولم تفتن كليوباترا قيصر عن نفسه كما فتنت مارك انطونيو بعدها بسنوات قليلة حين جعلته ينسى روما ويبقى بين احضانها فى مصر يعيش معها فى نعيم الحب • فقيصر لم يفكر فى الاقامة فى مصر فترة اطول مما كانت تقتضيه مهمته ، كما لم يكن فى نيته ان يترك مصر لكليوباترا او لاخيها بل كان يريد ان يجعلها ولاية تابعة لروما • لذلك فانه ما كاد ينتصر فى معركة النيل حتى اعتبر ان مهمته فى مصر قد انتهت وقرر الرحيل الى حيث يناديه واجبه • اما كليوباترا فقد نسيها تماما هى وكل ما يتعلق بها وبعالمها الصغير • وكاد ان يغادر مصر دون ان يودعها لولا ان جاءت هى الى الميناء لوداعه •

وخلاصة كل هذا ان قيصر برنارد شو لم يكن بالرجل الذى تخلب امرأة لبه وتصرفه عن مهامه العظمى وان كان يحب صحبة المرأة ويأنس اليهـا ، وان المودة والعطف اللذين كانا يغلبان على علاقته بكليوباترا شىء اصيل فى طبعه لا تحظى هى منه بأكثر مما يحظى أى مخلوق آخر ، وان الجانب الحسى فى علاقتهما لم يكن له فى المسرحية أى مكان حتى فى لحظة الوداع الاخير فقد جعل المؤلف قيصر حين يقبلها مودعا لا يقبل الا جبينها •

لقد قالت كليوباترا لقيصر ذات مرة انه طفل كبير •

وهذا وصف لا يخلو من الصحة اذا نظرنا للصــورة التي اراد المؤلف ان يعطيها عن قيصر • فقد جعله وديعا بقدر ما جعلها شرسة ، متواضعا بقدر ماجعلها ذات كبرياء ، طيبــا بقدر ما جعلها شريرة ، صريحـــا بقدر ما جعلهـــا ملتوية المقاصد ، رحيما بقدر ما جعلها قاسية القلب ، بريئا بقدر ما جعلها سيئة النية ، منعدم الطمــوح الشــخصي بقدر ما جعلها طموحة • وقد تعمد المؤلف ان يضــخم سـيئات كليوباترا ويجسمها لانه اراد ان يجعل من قيصر الصــورة العكسية لها فيما يتعلق بصفاتهما كشــخصين ادميين اولا ثم كرئيسين بيدهما مقاليد أمتين •

هي اذن مقارنة مقصودة • ولم تكن المقارنة الوحيدة فقد خلق « شو » شخصية اخرى فى المسرحية اراد للقارىء ان يقابلها بشخصية قيصر ليبرز نواحي اخرى من اخــلاقه • ولم يجعل المقارنة هنا بين الابيض والاسود كما فى الحالة الاولى بل بين نوعين مختلفين من انواع الرجـــــال • هذه الشخصية الاخرى هي شخصية « ابولودوروس » •

ان ابولودوروس الصقلي هو البطـــل الرومانسي بكل اوصافه : فهو شــــاب فى الرابعة والعشرين بهي الطلعة انيق الهندام يجيد المبـــارزة • وهو ككثير من اليونانيين الذين اســــتوطنوا مصر فى العصر الهلنستى يشــتغل بالتجارة ولو انه من النبلاء • وقد اختـــار لنفسه تجارة السجاجيد الفــــاخرة والتحف • وهو يعتبر ان محــــله التجاري معبد للفنون • وهو عابد للجمــال • وهو يعتبر نفسه خادما في محراب الفن • وهو شاعر ، الا انه لايسخر شعره ولا سيفه لقضية او مبدأ بل للفن ، والفن وحده • ذلك انه من انصار مذهب « الفن للفـــن » • وهو يرى ان

الاغريق هم ائمة الفن وان روما المنتصرة لا تنتج فنا بل تعيش عالة على فن البلاد الاخرى • وهو حين يقبل ان يحارب مع قيصر يفعل ذلك لا لانه يؤمن بالغرض الذى يحارب من اجله قيصر بل لفن الحرب فى ذاته •

اما نظرة « ابولودوروس » لكليوباترا فهى نظرة فارس العصور الوسطى الى المرأة التى قرر ان يضع نفسه فى خدمتها ، وهى تقول له فعلا : « انت فارسى الكامل » • وهو حين يحدثها لا يحدثها بلغة الكلام العادى بل بعبارات شعرية تحمل معانى شعرية • وهو يقول لها مثلا ان لمسة قدمها لأحقر قارب فى الميناء تجعل من هذا القارب قاربا ملكيا ، ويقول ان مجدافيه سيكونان بمثابة جناحين لجلالتها ، وهو يسمى كليوباترا نجمة الشرق ويقول انها جوهرة وانها لؤلؤة وانها تزداد جمالا من اسبوع لاسبوع وانها ملكة الملكات • ولانها كاهنة فهو من المؤمنين بها ومن تابعيها • وقد عتب عليها انها كلفت « فتاتاتيتا » بقتل « بوثينوس » وقال انه هو الذى كان عليه ، بصفته فارسها ، ان يقتله بعد مبارزة شريفة لانه تطاول على مقامها السامى • وهو يرجوها فى آخر المسرحية الا تبكى لرحيل قيصر لانه يحس — وهو خادمها — ان دموعها طعنات تطعنه فى صميم فؤاده •

هو اذن بطل رومانسى فاقد الصلة تماما بعالم الواقع • وكليوباترا من منظوره هى المرأة الكاملة التى برئت من العيوب • المرأة التى تمثل الجمال كله والتى لا يحتاج فارسها معها الى رسالة يؤديها او قضية يحيا من اجلها • انها الكائن المعبود والوجود كله والغاية النهائية •

وبالرغم من اختلاف قيصر عن « ابولودوروس » فى

الطبع والشخصية وفى النظرة الى كليوباترا كان قيصر لا يضن عليه بالتقدير ، وقد دافع عنه حين وصفه « روفيو » بالغرور • كذلك دعاه الى الوليمة في الفصل الرابع وقال لروفيو انه مسل وانه يعرف كيف يغني ويحكي الحكايات ، وانه يوفر عليهم عناء تسلية الملكة وان صحبته صحبة شيقة • وحين قال « روفيو » ان عيب « ابولودوروس » هو انه لا يعرف كيف يمسك لسانه رد عليه بانه شخصيا يحب المتحدث الذكي اللبق ذا الخيال الخصب وان مثله يلطف من حياتهم العسكرية التي تجعلهم أشبه بسرب النحل الذى لا يكف عن العمل •

والواقع ان قيصر في المسرحية عف اللسان لا يذكر احدا بسوء ولا يغلظ على احد ولا يحتقر احدا ولا يسخر من احد • وهو رقيق الحاشية حلو المعشر حتى مع اعدائه او وهو يتحدث عنهم • وقد رأينا كيف اطرى « بومبي » وذكر امجاده وحسناته رغم انه كان عدوه • وقد ذكر لكليوباترا مناقب مارك انطونيو ـ وهو يعلم انها تؤثره عليه ، فقال انه قائد خياله عظيم وانه اسرع قدما من اى روماني • وهو في الفصل الثاني يرفض ان يجلس على كرسى العرش حين يعرضه عليه عدوه بطليموس الصغير ويدفع هذا الاخير اخته التي اخذت بتلابيبه ويأخذ بيده ويقربه منه مما اثار غيرة كليوباترا •

وقد رأينا مدى الرقة التي كان يعامل بها « بوتينوس » الوصى على الملك رغم علمه انه من خصومه وانه حاربه وانه يتجسس عليه ويعمل على اخراجه من مصر • وكان يدعوه بالصديق • وقد عامله بنفس الرقة والاجلال قبل ذلك فى الفصل الثانى حين رآه للمرة الاولى فقال له حين عرفه

« بوتينوس » بنفسه : « خادمك يابوتينوس » • كما انه لم يغضب ولم تأخذه العزة بالاثم حين وجه له « بوتينوس » انذارا بالجلاء في الفصل ذاته وكل ما قال له وهو يسمح له بالخروج : « قل لأصدقائك الا يقتلوا احدا من جنود روما » • كذلك فانه حين عرفوه « باشيلاس » قائد جيش الملك قال له في دماثة : « جنرال ؟ انا ايضا جنرال ، ولكنى بدأت وانا عجوز •• عجوز جدا • اتمنى لك الصحة وانتصارات كثيرة يا أشيلاس » • هذا وهو يعلم ان اشيلاس خائن لوطنه روما وان انتصاراته تعنى هزائمه هو • كذلك قال لتيودوروس معلم الملك : « انت تعلم الرجال كيف يكونون ملوكا •• يالك من انسان قدير » • حتى « فتاتاتيتا » التى حاولت ان تتحداه فى الفصل الاول مما اضطره الى نهرها وتهديدها بالقتل اصبح يلاطفها ويحميها من غضبات كليوباترا وعواصف مزاجها الارعن • وحين يقول سكرتيره « بريتانوس » لحاشية الملك انتم أسرى قيصر يتدخل قيصر برقة ويصححه قائلا : « لا •• بل ضيوفه » • وهو يخاطب الجميع بأسمائهم باحترام ومودة ليس فيها من الزيف شيء •

ولم يجعل « شو » بطله ، سيد العالم ، متعاليا ولا مغترا بنفسه ولا محبا لاظهار سلطته بل جعله خافض الجناح يتقبل بلا غضب ان يرفع مرءوسوه الكلفة معه بل ان يحتدوا عليه ، ويسمح حتى لاعدائه ، وهم فى قبضته ، بأن يخاطبوه بغير الاحترام الواجب • كان يسمح بهذا ويأخذ الناس على علاتهم ولا يرى غضاضة فى التسليم بوجهة نظرهم حين يرى انها الحق • سألته كليوباترا فى الفصل الثانى لماذا يترك رجال البلاط يحدثونه بوقاحة

وهل الخوف هو الذى يجعله يتهـــاون معهم • ولم يثر لسؤالها بل رد عليها ببساطة : « ما يقولونه فى محله » • وكان فهمه لضعف الطبيعة الانســـانية ينزع من قلبـه الغضب والصلف ويجيز للكبير والصـــغير ان يخاطبه مخاطبة الند والند • « روفيو » مثلا كان ينتقده لانه يسمح لكليوباترا او غيرها بان يخاطبوه بلهجة غير مهذبة • وكان يحتد عليه فى الحديث فيقول له مرة عند الفنـــار : « اذا اردت عملا سريعا ، اذهب واعملـه بنفســـك » ومرة : « اتريدنى ان اترك طعامى واموت جوعا لاحضر لك الانباء » • « روفيو » يتحدث بســـــخرية فى منـاسبة اخرى عن « الجنرالات من امثالك ، الذين تنتـــابهم ازمات من رقة القلب • » وكان يقاطعه احيانا وهو يتحدث ويبـــدى على حديثه ملاحظات اقل ما يقال فيها انها غير لائقة • كل هذا وقيصر لا يغضب بل يقول : « صبرا ياروفيو •• سامحنى ياروفيو •• روفيو يا ولدى » • ومن هو « روفيو » هذا ؟ عبدا عتقه قيصر واتخذه ياورا وجعله منه بمثـــابة الابن • وقد اغتفر له كل هذا لانه كان يعلم انه رغم خشونة مظهره ولسانه جندى شجاع يكن له الحب والولاء •

وانتقدته كليوباترا وانتقد « لوسيوس ســـبتيموس » ماضيه الحربى وذكره بهزائمه وبالفظائع التى ارتكبهـــا هو وجنوده وقال له فى وجهه انه ليس خيرا منه • وانتقده المصريون فى بلاط الملك وسخروا منه لانه ظن انه ينتصر عليهم وقواتهم اضعاف قواته عددا • حتى عبده وسكرتيره « بريتانوس » جرؤ على الانتقـــاد بعض تصرفاته وقال ان تشجيعه للمصريين « البرابرة » فضيحة كما انتقد تسريحه للاسرى • ولا يكاد يكون فى المسرحية شـــخص ـ ربما

باستثناء « ابولودوروس » ـ الا وعاب على قيصر شيئا او اشياء ، كما وصفه روفيو بالثعلب • ولم يغضب قيصر من احد ولا آخذه ولا بادله نقدا بنقـد • وكان حين يدافع عن نفسه يفعل ذلك دون ان يرفع صـوته • فهو يقـول لكليوباترا التى تسأله لماذا يترك « روفيو » يعامله معاملته وتقترح عليه ان « يعلمه مكانه » : « أعلمه ان يكون عدوى وان يخفى عنى افكاره كما تخفين انت افـكارك عنى ؟ » • ويقول لروفيو ردا على بعض انتقاداته : « لو اننى اقتديت بلوسيوس واصبحت مثله تماما ولم اعد قيصر ، اتقبـل

بلوسيوس سبتيموس واصبحت مثله تماما ولم اعد قيصر، اتقبل البقاء فى خدمتى ؟ » • ويقول لبريتانوس الذى رأى ان الطريقة التى يعامل بها المصريين « فضيحة » : « فضيحة او لا فضيحة •• المهم انها تفتح بابا للسلام » •

وقيصر المسرحية ايضا انسان متقشف ، فثيابه ابسط الثياب وهو فى الوليمة يفضل الجلوس على حشية متواضعة من الجلد ويرفض حشية الحرير الفاخرة التى اعدتها له كليوباترا وملأتها بأوراق الورد • وهو حين تعرض عليه الوان الخمر والنبيذ الفاخر يطلب نقيع الشعير ولا يتناول شيئا من النبيذ الا بعد الحـاح شـديد من كليوباترا « وابولودوروس » • وهو يعزف عن المأكولات الفـاخرة والنادرة التى حفلت بها المائدة ويختار ابسط الالوان لدرجة تغضب كليوباترا وتجعلها تقول له ان خدمها يأنفون من تناول ما اختار لنفسه من اصناف وان من اضاعة الوقت ان يحاول احد اصدقائه اقامة وليمة له •

آراء بعض المؤلفين في قيصر المسرحية

نعود الان الى الموضوع الذى كنا بصدده تحت عنوان « غرض المؤلف من كتابة المسرحية » فنقول ان بعض الدارسين والنقاد الذين كتبوا عن مسرحية « قيصر وكليوباترا » قبلوا صورة قيصر التى وردت فى المسرحية دون تحفظات على انها الصورة الصحيحة • ولكن بعضهم الآخر لاحظ فروقا محسوسة بين هذه الصورة وصورة قيصر الاصلية كما سجلتها كتب التاريخ والتراجم العديدة التى كتبت عن هذا القائد العظيم • وقد كتب بعضهم فصولا فى اثبات ان قيصر ليس بالعظمة التي تصوره بها المسرحية وأحصوا عليه مثالب شخصية وأخطاء - أو حتى جرائم - عديدة ارتكبها فى حق الانسانية كقائد عسكرى او كسياسى ورجل دولة • وسنكتفى هنا باشارة سريعة لاراء اربعة من المؤلفين الذين ابدوا شكوكا فى مطابقة قيصر المسرحية لشخصية قيصر التاريخية والذين أدت بهم هذه الشكوك الى تصور ان برنارد شو حين وصف قيصر فى هذه المسرحية انما كان يريد ان يتحدث عن شخص آخر •

واول هؤلاء المؤلفين هو « سانت جون ايرفن » الذى عرف برنارد شو شخصيا وكان صديقا حميما له لاكثر من اربعين سنة • ويورد هذا المؤلف فى كتابه « حياة برنارد شو واعماله واصدقاؤه » بعض ما قاله الكاتب البريطانى « ويلز » عن قيصر فى مؤلفه المشهور عن تاريخ العالم • ان ويلز فى كتابه المذكور يصف قيصر بانه رجل أصلع ، فى منتصف العمر ، قد تجاوز سن الحب الشباب وفوراته ، ويقول انه قضى الجانب الاكبر من السنة التى اقامها فى

مصر فى مداعبات مع كليوباترا ملكة مصر وان ذلك يكشف عن الجانب الحسى او العاطفى عند هذا الكهل الذى كان ، فى بداية علاقته بكليوباترا ، فى الرابعة والخمسين ، أكثر مما يكشف عن شخصية قائد رجال عظيم ، وان يوليوس قيصر كان مصابا بجنون العظمة الذى يلاحظ عند الرجل العادى وان محاولاته المبتذلة المضحكة لجعل الناس يعبدونه محاولات غبية لا تشرفه ولا تتفق مع الفكرة التى تقول انه كان رجلا حكيما ورائعا يريد ان يصلح العالم •

ويلاحظ « ايرفن » ان وصف « ويلز » هذا لقيصر لا ينطبق على قيصر المسرحية على الاطلاق وانه هو ــ لانه ليس مؤرخا ــ لا يدرى أى الوصفين ، وصف ويلز أو وصف « شو » ، هو الوصف الصحيح لقيصر ، وان هذا ، على أى حال ، ليس امرا ذا بال فى المسرحية • ويضيف « ايرفن » ان برنارد شو حين قرأ مسرحية « يوليوس قيصر » لشكسبير ورآها على المسرح لم تعجبه صورة قيصر التى صور بها شكسبير بطله فقرر ان يرسم له صورة أخرى • وانه ، أى برنارد شو ، رسم فى المسرحية لوحة للعبقرية كما يتصورها ثم اطلق عليها للتبسيط اسم يوليوس قيصر • ويقول « ايرفن » أيضا ان من لاينتبه الى ان ما يعرضه برنارد شو فى هذه المسرحية هو مفهوم العظمة كما يراها هو وليس صورة صادقة لشخصية قيصر التاريخية لا يفهم المسرحية على حقيقتها ، وان « شو » محق فى نقده لقيصر شكسبير الذى يصلح ، فى نظر « ايرفن » ، لان يكون تاجرا ناجحا يشتغل باستيراد الموز لا امبراطورا عظيما ، وان قيصر برنارد شو ، على العكس ، انسان عبقرى تبدو رنة عبقريته فى كل عبارة ينطق بها • ويشير

« ايرفن » الى ما جاء فى تعليقات برنارد شو على مسرحيته لا سيما قوله انه يخالف من يعتقدون ان وجود ماكينات ضخمة كثيرة عند دولة من الدول دليل على تقدمها ، وتساؤله عن قيمة ان يكون لدولة ما ماكينات وآلات ضخمه اذا كانت عقول افراد شعبها عقول تافهة ، وما يقرره من أن سيطرة الانسان على العالم شيء عديم القيمة جدير بالاحتقار ما لم تقترن بزيادة تحكمه فى نفسه باعتبار ان هذا التحكم هو نوع التحكم الوحيد الذى يمكن للانسان بواسطته ان يتطور ليصبح « مخلوقا اسمى مما هو عليه » . ويستطرد « ايرفن » فى ملاحظاته قائلا ان المسرحية تعالج هذا الموضوع معالجة درامية كاملة وانها تتحدث عن رجل عظيم يواجه مجموعة من الغوغاء ذوى الاحلام الضعيفة ، وان قيصر « شو » والمسرحية التى ظهر فيها لا تصلهما بالواقع التاريخى الا أوهى الاسباب وان اهتمام برنارد شو ينصب لا على قيصر كفرد بل على العلاقة النظرية والدرامية بين قوة يمثلها قيصر وبين شئون هذه الدنيا ، وان اثر هذه القوة لا ينصرف الى أى لحظة تاريخية محددة بل ينسحب على التاريخ كله .

والمؤلف الثانى الذى تحدث عن قيصر المسرحية هو « موريس فالانس » وهو يقول فى الكتاب الذى الفه عن مسرحيات برنارد شو بعنوان « العربة والبوق » ان بطل « شو » فى مسرحية قيصر وكليوباترا « لا يشبه اصله التاريخى وان كتب التاريخ تقول ان قيصر قد قتل مليون شخص فى حروبه فى فرنسا والبلاد المحيطة بها وجعل مليونا آخر من أهل هذه البلاد عبيدا ارقاء ، وانه كان مصرا على تأليه نفسه فى حياته وانه امر بوضع تمثاله فى

معبد « كرنيوس » ليعبده الناس ، وان هذا القيصر ابعد ما يكون عن المثل الاعلى الذى اراد شو ان يرسمه فى المسرحية

وثالثة المؤلفين التي كتبت عن قيصر المسرحية هي « مارجرى مورجان » ، وهى من المؤلفين القلائل الذين تنبهوا الى ابعاد الرمزية في مسرح برنارد شو • وترى هذه المؤلفة فى كتابها « ملعب شو » ان برنارد شو يجسد مجرى التاريخ في حياة بعض العظماء ويصور عظمتهم على انها نبوءة بعصر جديد وبقيم جديدة • وهى ترى ان سمات قيصر في مسرحية « قيصر وكليوباترا » تنبيء بقدوم السيد المسيح وذلك من منظور لا يقف عند عصر المسيح بل يمتد ليشمل العالم الحديث ، وان قيصر فيها يعلن قرب صدور قانون انساني جديد يتعارض مع القانون القديم الذى كان يقوم على الانتقام • وهي تقول ان برنارد شو يبطل في مسرحية « قيصر وكليوباترا » الرأى الذى كان شائعا في القرن التاسع عشر والذي مؤداه ان العالم يتقدم وان الجنس البشري قد استفاد من تجاربه السابقة •

اما المؤلف الرابع والاخير فهو « هسكس بيرسون » صاحب اشهر ترجمة لبرنارد شو ، وهى ترجمة اعيد نشرها عدة مرات • ويذكر بيرسون نقلا عن برنارد شو انه قرأ الكثير عن قيصر قبل ان يكتب مسرحية « قيصر وكليوباترا » وانه وصف احداث المسرحية كما وردت في كتاب المؤرخ الالمانى « مومسن » (١٨١٧ ـ ١٩٠٣) • ويقول بيرسون ان « شو » اقام فى هذه المسرحيات تمثالا لقيصر كرجل عظيم ، وانه هو ـ بيرسون ـ يشك فى صدق الصورة التي صوره بها برنارد شو ، وأن شاهدا من أهل قيصر ـ هو الكاتب الايطالى « فرارى » ـ شهد بأن

قيصر الحقيقي كان ابعد ما يكون عن الصورة المثالية التي رسمها له « شو » ، وانه « اسقط التمثال عن قاعدته » • ولاحظ بيرسون كذلك ان « شو » قد طبع الصورة التي وجدها عند المؤرخ « مومسن » بطابعه هو وان قيصر الذى تصوره المسرحية هو في الواقع برنارد شو نفسه بل هو خير صورة رسمها « شو » لنفسه • وأضاف « بيرسون » ان قيصر المسرحية ، شأنه فى ذلك شأن جميع الشخصيات النابضة التي يتجاوب برنارد شو معها في اعماقه ، يمت بصلة الى يسوع المسيح •

وبتحليل هذه الاراء يتضح ان المؤلفين الاربعة متفقون على امور ثلاثة هي :

ـ ان قيصر المسرحية يختلف عن قيصر التاريخي •

ـ ان غرض « شو » من كتابة المسرحية لم يكن وصف قيصر التاريخي •

ـ ان قيصر المسرحية ليس فى الواقع الا واجهة وان وراءه شخصية اخرى هى التى اراد المؤلف ان يتحدث عنها •

واختلف المؤلفون الاربعة فى هوية هذه الشخصية فمنهم من يرى انها نموذج مجرد للعظمة كما يتصورها شو ، ومنهم من يرى انها شخصية « شو » نفسه ، ومنهم من يرى انها شخصية السيد المسيح .

واخيرا فان من هؤلاء المؤلفين من يرى ان للمسرحية أبعادا تتجاوز شخص قيصر وتمس أوضاع العالم وقوانينه .

رأينا في المسرحية

مسرحية « قيصر وكليوباترا » ، في رأينا واحدة من مسرحيات عديدة كتبها برناردشو بالرمز عن نبي الاسلام وعن رسالته صلوات الله عليه .

وقد يكون من المفيد قبل أن نشرح في اثبات وجهة نظرنا في هذا الصدد ان نبدى رأينا في مختلف النقاط التي استخلصناها من تحليل آراء الكتاب الذين تعرضوا لشخصية قيصر في المسرحية .

قيصر المسرحية يختلف عن قيصر التاريخي

نحن نوافق تماما على هذا الرأى الذى انتهى اليه المؤلفون الأربعة وغيرهم . ولسنا بحاجة الى الاطالة في شرح هذا الرأى لأن نظرة واحدة الى شخصية قيصر التي صورها « شو » في المسرحية والى شخصيته كما تتضح من النبذة التي أوردناها عن قيصر في مستهل هذا البحث تدل على أن بين الاثنين بونا شاسعا فقد أمر وسمح قيصر التاريخي بارتكاب فظائع واجراءات انتقامية شنيعة في البلاد التي فتحها أو أخمد ثوراتها ، كما أن طموحه الشخصي لم يكن يقف عند حد وانه ، رغم ما كان يبديه من ميول ديمقراطية ، كان شديد الاعتزاز بارستقراطيته محبا للمجد الشخصي لا يتورع عن شيء في سبيل الحصول على مزيد من السلطة والجاه ، وقد كان ، فيما يتعلق بأخلاقه الشخصية ، لا يعرف فضيلة ولاعفة ولا نزاهة . ورغم صفاته الايجابية العامة التي لا تنكر في بعض النواحي فقد كان ذا سلبيات ونقائص جسيمة

شتى . وهذا كله يجعل حقيقته الفعلية تختلف اختلافا بينا ــ كما لاحظ المؤلفون ــ عن الصورة المثـــالية التى رسمها له برناردشو .

غرض « شو » لم يكن وصف قيصر التاريخى

فى هذه النتيجة أيضا نتفق تمــاما مع رأى المؤلفين الأربعة . لقد كتب « شو » عن قيصر كلاما يفهم من ظاهره انه كان من المعجبين به فقد قال ان السبب الذى جعــله يعتمد على ماكتبه « مومسن » عن قيصر هو انه ــ بخلاف المؤرخ الاغريقى القديم بلوتارك وبخلاف شكسبير ــ لم يكن يكره قيصر وان مذهبه فى فهم قيصر قــريب الى مذهب جوته الذى كان يرى انه من أعظم عظمــاء التاريخ ، ومع ذلك فان لدينا من الأسباب ما يجعلنا نتحفظ كثيرا فى تصديق « شو » حين يوحي بانه كان معجبا بقيصر وفى تصور ان أعجابه به كان كبيراً الى درجة تجعله يخصص له مسرحيةمن المسرحيات القليلة التىعالج فيهاشخصيات تاريخية .

لقد كان شو ــ كما ذكرنا فى صدر مقالنــــا « كيف تحايل (شو) على الرقابة والقــــراء » يرى ان « الكتــابة عن الانبياء أهم عند الكاتب المسرحى وافيد من الكتــابة عن الغزاة والفاتحين » . وقد كان قيصر ، كما رأينا ، غازيا وفاتحا قبل كل شيء ، وبالتالى فانه لا يستحق فى شرع « شو » نفسه أن تكتب من أجله مسرحية .

ثم ان قيصر لا يحتل فى أعمال برنارد شو مكانا يذكر . ولو ان اعجاب « شو » به كان اعجابا بغير حدود لتردد ذكره كثيرا فى كتاباته .

و « شو » ـ فضلا عن ذلك ـ يصف قيصر فى المسرحية بكلمة لا تقال عن شخص يكن له المرء تقديرا ومحبة عظيمين . لقد جاء فى « برواوج » المسرحية من خطاب الاله « رع » هذه السطور : « ذلك ان بومبى ذهب الى حيث ذهبتم ، الى مصر . وكان فى مصر احتلال رومانى كالاحتلال البريطانى الموجود فيها الآن . وتعقب قيصر « بومبى » حين ذهب الى مصر . رومانى يلوذ بالفرار ورومانى فى أثره : كلب يأكل كلبا » . ثم فى نفس الفقرة، من حديث المصريين الى « لوسيوس سبتيموس » ، هذا القول : « الكلاب فى بلدك تأكل الكلاب . وكلا الكلبين آت ليأكلنا ، فيم تنصحنا ؟ » وكانت نصيحة « لوسيوس سبتيموس » للمصريين ان : « ادرسوا الأمر جيدا لتعرفوا أى الكلبين أكبر عن الآخر ثم اقتلوا الكلب الآخر من اجله لتجدوا الحظوة لديه » .

ثلاث مرات اذن يوصف فيها قيصر بانه كلب : مرة بلسان الاله « رع » ومرة بلسان المصريين ومرة بلسان القائد الرومانى « لوسيوس سبتيموس » وهم جميع الاطراف ـ فى الأرض وعند الالهة ـ التى كان لها أن تبدى فيه رأيا . وتفضيل « شو » قيصر على « بومبى » بلسان الاله « رع » باعتبار ان الأول يمثل روما التقدمية والثانى روما الرجعية لم يمنعه . حين ينتقل الى مستوى آخر من أوجه المقارنة . من أن يسوى بين الاثنين ومن أن يشبههما كليهما بالكلاب . ولو ان اعجاب « شو » بقيصر كان اعجابا مطلقا لما نعته بهذا النعت المهين .

وثمة عبارة اوردها المؤلف على لسان قيصر فى مناجاته لأبى الهول فى الفصل الاول من المسرحية اراد بها أن تنبه القارىء الحصيف الى جوانب فى شخص قيصر لا يمكن ،

بأى معيار من المعايير ، أن تعتبر من جوانب العظمة . انه يجعل قيصر يقول لابى الهول : « أنا الكائن الذى أنت رمز لعبقريته : جزء منه وحش كاسر ، وجزء امرأة ، وجزء اله » هذا الوصف الثلاثى الذى يصف به قيصر نفسه يلخص رأى المؤلف فيه حين ينظر اليه من ثلاث زوايا :

فالوحش الكاسر هو القائد الذى أخضع لسلطانه وسلطان روما شعوبا يقدر عدد أفرادها بعشرات الملايين فى أوروبا وفى شمال افريقيا وفى غرب آسيا بعد حروب مروعة قتل فيها أو بيع كرقيق عدد هائل من سكان تلك البلاد واحرقت أو دمرت مدنهم وقراهم ومساكنهم وشردت أسرهم ونهبت أموالهم وتحملوا من صنوف العذاب والشقاء ، والذل أفظعها وأنكاها ، والقائد الذى أخمد الثورات التى قامت ضد روما بقسوة بالغة والذى اشترك فى الحرب الأهلية وقتل من جنود بنى وطنه الرومان من قتل حفاظا على سلطان امبراطورية جائرة كان هو أول من يعرف مدى فسادها وظلمها .

والجزء النسائى فى شخص قيصر ، الذى حرص المؤلف على تسجيله ، هو ذلك الذى يتصل باخلاقه الشخصية فى المسائل الجنسية والذى لخصه عضو فى مجلس الشيوخ الرومانى فى جملته المشهورة التى قال فى شقها الثانى ان قيصر « امرأة لكل رجال روما » ـ اشارة الى شذوذه الجنسى ـ بعد أن قال فى أولها انه « رجل لكل نساء روما » اى انه فاسق منحل لا يرعى حرمة لأحد .

وأما كون قيصر الها فى جزء منه فتفسيره انه كان يعتقد انه ينحدر من جهة أبيه من الالهة « فينوس » وانه

عمل على أن يعبده الرومان لا كبطل فقط بل كاله .

وأيا كان الجزء الذى ننظر اليه من أجـــزاء قيصر الثلاثة فلا يمكن أن يدور بخلدنا أن برناردشو كان ينظـر الى قيصر باعجاب ، فمن المعروف ، ومما قرره « شو » فى هذه المسرحية وفى غيرها عشرات بل مئات المرات ، انه كان يكره الامبراطوريات ويكره الجيوش والجنـــود ويكره بالتالى القادة الحربيين ، وهو ــ بالرغم من انه لم يكن يعتبر ان حب الرجل للنساء فى ذاته عيبا أو نقيصـة ــ كان يكره الانحلال والشذوذ الخلقى . واخيرا فان« شو » الذى لم يكن يؤله الانبياء ــ على شدة احترامه لهم ــ ما كان يمكن أن يستسيغ فكرة قيصر عن نفسه أو فكرة الرومان عنه باعتباره الها (*)

ويلاحظ أخيرا أن « لوسيوس سبتيموس » حين ذكر قيصر فى الفصـــل الثـــانى بالاف الرءوس والايدى التى قطعها ــ والعدد الفعلى أكثر من ذلك بكثير ــ وبقتـــله لأسيره الزعيم الفرنسى الشجاع « فرسنجتوركس » جعل قيصر يعترف بجريرته وقال : « ما الذى يجعـــل قاتل فرسنجتوركس يقرع قاتل بومبى ؟ » .

برنارد شو لم يكن اذن غافلا عن عيوب قيصر بل لقد حرص على اثباتها فى المسرحية بوضوح كامل . لذلك فمن غير المعقول أن يكون غرضه من كتابة المسرحية هو تمجيد قيصر التاريخى ، بل أننا لا نستبعد ، على العكس ، أن يكون من أهداف قيصر المسرحية المثالى ابراز مســـاوىء قيصر التاريخى على طريقة « شو » التى رأينـــاها فى المقابلة بين الشـــخصيات . فكما انه جعل كليوباترا « وأبولودوروس » صورتين عكسيتين لقيصر المسرحيـة

لابراز محاسنه ، جعل قيصر المسرحية الصورة العكسية لقيصر الحقيقى .

قيصر المسرحية واجهة وراءها صورة اخرى

هنا أيضا نحن نتفق تماما مع رأى المؤلفين الأربعة الذين قارنوا بين قيصر المسرحية وقيصر الأصلى واكتشفوا ان المؤلف حين تحدث عن قيصر فى المسرحية انما كان يريد فى واقع الأمر أن يتحدث عن انسان آخر ، وقد كانت هذه حيلة من الحيل التى أشرنا اليها فى مقال « كيف تحايل « شو » على الرقابة والقراء » والتى توسل بها المؤلف ليصف هذا الانسان الآخر . وأمثال هذه الحيلة وغيرها كثيرة فى مسرح برناردشو ، وهذه هى الرمزية ذاتها . والرمزية شىء قديم فى الكتابة قدم الكتابة نفسها وهى تتخذ صورا لا حصر لها منها ان ترمز شخصية معينة لشخصية أخرى . وقد ظلت الرمزية فى مسرح «شو» مجهولة الى أن اكتشفها مؤخرا بعض الدارسين . وهم لم يكتشفوا الا بعض ابعادها حتى الان . ومن الحق ان الرمزية فى المسرح ليست أمرا شائعا وان كان برناردشو نفسه قد اكتشفها فى مسرح الكاتب النرويجى « ابسن » ، كما ان من ممثليها البارزين الكاتب المسرحى البلجيكى « موريس مترلنك » . وهى مستعملة أكثر فى الرواية وهناك روايات يطلق عليها اسم « الروايات ذات المفتاح Romans a Cle تدخل فى هذا القبيل . وتعرف هذه الروايات بانها روايات تصور اشخاصا فعليين ومعروفين تحت أشخاص من صنع الخيال . وان فى أمكان من لا يحوزون « مفتاحها » أن يقرءوها كقصة عادية ، ولكنها تكتسب بعدا اضافية

من الطرافة عند من يملكون هذا المفتاح . ومن أمثـــلة هذا النوع من الروايات رواية للمؤلف المشـهور « الدوس هكسلى » بعنوان Point Counter Point يظهر فيها الكاتب « د . هـ . لورانس » والكاتبة « كاترين مانســفيلد » كشخصيات خيالية . وقد استعار برناردشو هذه الطريقة فى مسرحية « قيصر وكليوباترا » وجعل شخصية قيصر ترمز الى شخصية أخرى .

ما هى هذه الشخصية الأخرى

هنا اختلف المؤلفون كما رأينا فذكر أحدهم انهـــا شخصية العظمة المجردة وذكر آخران انها شـــخصية السيد المسيح . اما نحن فنرى انها شخصية رســـول الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام . شخصيته المفتوحة نقلها برناردشو ، كما تصورها ، الى بلد غير بلد الرسول العربى الكريم والى عصر سابق على عصره بسبعة قرون . واعترضنا على نظرية كلٌ من « ماجـــــرى مورجان » و « هسكس بيرسون » التى تذهب الى ان الشخص الذى يكمن وراء قيصر المسرحية هو السيد المسيح يستند الى أنه عليه السلام لم يكن أبدا قائد جيش ولا رجلَ دولة أو سياسة كما ان رسالته والاناجيل التى سجلتها لم تتعرض لكثير من المسائل التى كان على قيصر فى المسرحيـــة أن يتعرض لها . ومع ذلك فاننا لا ننكر أن صـــفات الرحمة والتسامح والمبادرة الى العفو التى اتصف بهـــا قيصر المسرحية من صفات المسيح عليه السلام . كلّ ما نقوله هو ان هذه الصفات كانت أيضا من صفات نبى الاســلام صلى الله عليه وسلم وان شـخص قيصر المسرحيـــة

ومسئولياتها والدور الذى كان عليه أن يلعبه أقرب الى محمد منها الى المسيح . ومهما يكن من أمر فالثـــابت لدينا ، فى هذه المسرحية كما فى معظم مسرحيات برناردشو « الاسلامية » ، ان المؤلف يقرن محمدا بالمسيح عليهمـــا السلام ويقرن الاسلام بالمسيحية ويكاد يعتبرهما دينا واحدا

ابعاد تمس اوضاع العالم وقوانينه :

نحن نتفق مع ما يقوله « ايرفن » من أن « اهتمام برنارد شو ينصب لا على قيصر كفرد بل على العـــلاقة النظرية والدرامية بين قوة يمثلها قيصر وبين شئون هذه الدنيا ، وأن أثر هذه القوة لا ينصرف الى أى لحظـــة تاريخية محددة بل ينسحب على التاريخ كله » . كذلك فاننـــا نوافق على ما قالتـــه « مورجـــان » من أن برنارد شو « يجسد مجرى التاريخ فى حياة بعض العظماء ويصور عظمتهم على انها نبوءة بعصر جديد وبقيم جديدة .. وأن قيصر فيها يعلن قرب صدور قانون انســـانى جديد يتعارض مع القانون القديم الذى كان يقوم على الانتقام » .

كيف عرف برنارد شو الاسلام ونبيه

كتب برنارد شو الى سيدة من معارفه اسمها « ليلى ماكارثى » خطابا بتـــاريخ ١٩ مارس سنة ١٩٠٩ (نشر فى الجزء الثانى من مجموعة رسائله الصـــادرة عن دار « ماكس رينهارت » البريطانية) قال فيه انه كان فى تلك الايام يقرأ القرآن يوميا وانه نجح أخيرا ، بعد سنوات

من الجهد ، فى اقناع دار نشر « افريمان » باصـــدار ترجمة « رودويل » للقرآن . واضاف أن ترجمة «سيل» فى نظره صعبة الفهم وأن « رودويل » قد رتب السور حسب تواريخ نزولها ، بخلاف الترجمة المعتمدة وترجمة « سيل » اللتين جاءت فيها هـذه الســور مختلطــة الترتيب » .

وتتضح من هذا الخطاب عدة أمور هى : أولا ، ان برنارد شو قرأ القرآن فى ترجمة « رودويل » وثانيا ، انه سبق له أن أطلع على ترجمة القرآن المعتمدة وعلى ترجمة « سيل » . وكانت اول طبعة لترجمة « رودويل » قد صدرت فى عام ١٨٦١ ، أما ترجمة « سيل » فقــد صدرت قبلها بأكثر من قرن أى فى عام ١٧٣٤ . ولم تحدد المصادر التي رجعنا اليها تاريخ ظهــور الترجمة المعتمدة ولا الجهة التى صــدرت عنها . ويتضح من الخطاب ثالثا أن برنارد شو لم يكتف بقراءة القرآن بل أنفق سنين فى محاولة اقناع دار « أفريمان » باعادة نشر ترجمة « رودويل » . ومن المعروف أن هذه الدار تصدر نسخا شعبية بأجر زهيد . وهناك من الدلائل ما يشير الى أن « شو » قد أطلع كذلك على ترجمات للقرآن غير ترجمة « رودويل » و « سيل » والترجمة المعتمــدة ، فقــد أشــار فى مقــدمة مسرحية « ظهور بلاسكو بوزنيت » الى ترجمات للقرآن وصف محمد فى مقدماتها بأنه أفاق والى كتب أقدم منها نسب مؤلفها رسول الاسلام ولقبــوه بـ « ماهاوند » Mahound

كلمة مركبة أضيف فيها الحرفان الاول والثانى من اسم محمد ، الذى جرى العرف فى أوروبا على كتابته هكذا :

Hound الى كلمة Mahomet التى تعنى بالانجليزية نوعا من أنواع الكلاب الشرسة ، وتعنى مجازا الشخص الجدير بالاحتقار ، ووضعوه مع الشيطان ذاته فى فئة واحدة).

ولم يتضمن خطـــاب « شو » الى ليلى ماكارثي ولا أى خطاب أو كتابات غيره شيئا عن الانطباعات التى خرج بها من قراءة القرآن ولكن ما يستفاد من قراءته اليومية لهذا الكتاب ، من جهة ، ومن بذله جهودا متكررة على مدى سنوات لـدى دار من دور النشر لاصدار طبعة رخيصة منه ، الأمر الذى لم يعرف أنه فعله مع كتاب آخر ، يحمل على الظن بأنه وجد فيه شيئا ثمينا رأى من الخير أن يصل الى أكبر عدد من الناس .

وقد بحثنا طويلا فلم نجد فى كتابات هذا المؤلف ولا فى رسائله ولا فيما ألف عنه وعن مسرحياته أو فى مقدمات هذه المسرحيات ومؤلفاته الأخرى ذكرا لكتاب قرأه من كتب السيرة النبوية باللغات التى كان « شو » يعرفها مع أن القرن التاسع عشر الذى عاش فيه النصف الأول من حياته كان حافــلا بكتابات المستشرقين من امثــال « وليم موير » و « مارجوليوث » (الذى كتب مقدمة ترجمة « رودويل » للقرآن الكريم) عن حياة الرسول ، علما بأن أسماء معظم من كتبوا عن الرسول صلوات الله عليه بالانجليزية والفرنسية والالمانية قد وردت فى تعليقات « رودويل » على مختلف الآيات القرآنية ، فى الهوامش أسفل الصفحات .

ومع ذلك فاننا لا نتصور أن يكون « شو » قد اقتصر على قراءة ترجمة القرآن والا يكون فضوله قد دفعــه الى معرفة المزيد عن محمد . والذى نرجحه هو انه قرا

عن الإسلام ونبيه عددا من الكتب التي وجدها في المكتبات التجارية وفي مكتبة المتحف البريطاني التي ظل عشر سنوات من شبابه يتردد عليها ويستعير منها الكتب ويقضي فيها ساعات طويلة كل يوم . ومعظم هذه الكتب ألفه مستشرقون ولكن بعضها ككتاب « روح الاسلام » لسيد أمير علي كان من تأليف مسلمين من الهنود ممن كانوا يكتبون بالانجليزية .

وكتابات المستشرقين عن الرسول صلى الله عليه وسلم تعتمد أساسا على كتب السيرة العربية القديمة مثل سيرة ابن هشام والواقدي وابن سعد والطبري بالاضافة الى كتب الحديث . وفي كثير من هذه الكتب للأسف الشديد — كما لاحظ كتاب مثل محمد لطفي جمعة — اشياء تسيء الى محمد من حيث لا يدري من كتبوها او نقلوها ، ولم يكن أصحابها يحسبون أن نستغل في يوم من الايام ضد الاسلام في كتابات غير المسلمين عن الاسلام وضد رسوله الكريم . ولم يكن أحد من المستشرقين يعترف بنبوة محمد كما ان كثرتهم الغالبة — اما لانهم كانوا يكتبون عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من منطلق تبشيري أو لأنهم كانوا يعملون في وزارات الاستعمار الغربي أو يؤلفون كتبا بتكليف منها ، أو كانوا ملحدين لا يعترفون بدين — كانت ترسم عن رسول الاسلام صورة سلبية وان اعترف له بعض المستشرقين ببعض الحسنات . وقراءة هؤلاء المستشرقين للقرآن في معظم الاحيان قراءة ناقدة الغرض منها جمع الأدلة للطعن بها على الاسلام ونبيه لا النفاذ الى حقيقة رسالته عليه الصلوات .

وكانت أكثر المطاعن التي وجهها المستشرقون والمبشرون الى نبي الاسلام تتعلق اساسا بأربعة أمور هي :

أولا الوحي فهم يرفضون الاعتراف بأن القرآن وحي الهي كالوحي الذي يعتقد اليهود والمسيحيون أنه نزل بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، وهم يقولون أن ما في القرآن منقول عن اليهودية والنصرانية . وهي ثانيا حروب النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن أقوالهم الشائعة ان الاسلام قد انتشر في حياة الرسول بحد السيف . وهي ثالثا حوادث الاغتيال الفردي التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يأمر بها أحيانا للتخلص من بعض أعداء الاسلام . وهي أخيرا تعدد زوجات النبي وحبه للنساء .

والواضح من كتابات « شو » ومن اعجابه بشخص الرسول الكريم اعجابا عبر عنه صراحة وضمنا عدة مرات أنه لم يتأثر بمطاعن المستشرقين وذلك اما لانه شك في صدقها أو لانه رأى مثلها أو اسوأ منها في الديانات الاخرى أو في تاريخ الدول التي تدعى التحضر ، أو لانه ـ كما سنرى في دفاعه عن حكمة تعدد الزوجات عموما وعن تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه التخصيص ـ لم يكن يرى أنها مطاعن حقيقية . ومما لا شك فيه أنه كان يبني رأيه في الرسول وفي دعوته لا على آراء المستشرقين بل أساسا على ما في القرآن وما ورد فيه من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ومن توحيد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر واعتراف برسالات الانبياء السابقين وحث على العفة والعدل والرحمة والانفاق في أغراض الخير والعمل الصالح وعلى احترام ارواح الناس وأعراضهم وثورة على الظلم وعلى

الوثنية والقبلية والعنصرية وحب المال والمولد والسلطان.
ولا شك أيضا فى انه كان أكثر اطمئنانا الى ما لابد أنه قرأه من كتابات المسلمين عن نبيهم وما ذكروه عن خلاله وشمائله منه الى ما كان يجده فى المراجع الغربية .

ونحن لا نستبعد أخيرا أن يكون برنارد شو قد التقى فى انجلترا بعدد من المسلمين وتحادث معهم فى أسس عقيدتهم . كذلك فمن الثابت أنه ، فى فترات مختلفة من حياته ، زار عددا من البلاد الاسلامية مثل تركيا ومصر والجزائر وبعض دول أفريقيا وآسيا الاسلامية أو التى فيها أقليات كبيرة من المسلمين .

راى برنارد شو فى محمد صلى الله عليه وسلم

كتب برنادشو فى مقدمة مسرحية « أبلة الجزر غير المتوقعة » : « محمد واحد من أعظم أنبياء الله » . ومن المهم أن تكون هذه الكلمات الست ماثلة فى ذهن القارىء وهو يقرأ بحثنا هذا وبحوثنا التالية عن بعض مسرحيات برنارد شو ، فقد لخص فيها رأيه فى نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام بصورة قاطعة حاسمة لا تقبل اللبس .

ومن الجهة الاخرى كتب « هسكس بيرسون » مؤلف أشهر ترجمة لبرنارد شو هذه السطور التى نرجو أن يتذكرها القارىء أيضا بصدد شرحنا لمسرحيات شو :

« كان برنارد شو لسنوات عديدة يفكر فى كتابة مسرحية عن أحد الانبياء . وكان نوع القديسين المناضلين أقرب الى طبيعته من أى نوع آخر ، وهو نوع كان يتعاطف معه تعاطفا كاملا وكان فى مقدوره بالتالى أن يصفه بدقة

كاملة . والشخص الوحيد فى التاريخ كله الذى كانت تتوافر فيه شروطه والذى كان يمكن أن يكون بطل «شو» الكامل هو محمد . وفى عام ١٩١٣ أراد شو أن يكتب مسرحية عن هذا الموضوع للممثل «فوربز - روبرتسون». وقبل ذلك بأربع سنوات أبلغ اللجنة البرلمانية التى كانت تبحث موضوع الرقابة على المصنفات أنه « كان يود منذ وقت طويل ان يكتب مسرحية عن حياة محمد . ولكن احتمال أن يتقدم السفير التركى - أو خشية هذا الاحتمال - الذى كان سيترتب على تحققه أن يمتنع المسئول الحكومى عن اصدار تراخيص عرض المسرحيات عن منح تصريح بعرض هذه المسرحية منع « شو » من كتابتها . وبالرغم من هذا كان خياله يدور باستمرار حول النبى الذى وصفه « الرجل الكهل » فى مسرحية « العودة الى متوشالح » بأنه « رجل حكيم حقا لانه أسس دينا بلا كنيسة » . وهو يظهر شخصيا فى كتاب « مغامرات الفتاة السوداء » كما أن « كوشون » يتحدث عنه فى مسرحية « سانت جان » . ولكن نظرا الى أن اعتراض الرقيب على عرض المسيح على المسرح ينطبق فى الشرق على عرض محمد ، ولما كان من المحتمل أن يؤدى اخراج مسرحية عن النبى الى قتل المؤلف بيد مسلم متعصب ، كتب برنارد شو مسرحية « القديسة جان » بدلا من هذه المسرحية » .

الدعوة الى الاسلام

اذا كان هناك اذن كاتب يعتبر أن محمدا هو «الشخص الوحيد فى التاريخ كله الذى كانت تتوافر فيه شروطه والذى كان يمكن أن يكون بطله الكامل » ، وأنه « واحد

من اعظم انبياء الله » ، وكان هذا الكاتب قد قضى سنوات في محاولة اقناع ناشر مشهور بنشر ترجمة القرآن الذى يتضمن جوهر الدين الذى جاء به محمد ، واذا فكر هذا الكاتب فى تأليف مسرحيـــة عن حياة محمد ، فما هى العناصر التى يمكن أن نتصور أن تتضمنها المسرحية ؟. من المشروع ان نتصور ان هذا الكاتب سيحاول أن يقود القارىء الى نفس الطريق الذى سبق له هو نفسه أن سار فيه الى أن وصل الى الاقتناع بما اقتنع به ، وأن تكون مراحل هذا الطريق كالآتى :

أولا : استعراض الاوضاع الراهنة فى العالم ونقـــد الاسس التى تقوم عليها .

ثانيا : تقديم النبى الذى يريد الكاتب ان يقدمه الى القارىء وابراز الجوانب الايجابية التى يجسدها هـــذا النبى بشخصه ودينه فى مقابل السلبيات التى انتقدها فى الاوضاع الراهنة وثالثا : الرد على المطاعن التى وجهت الى هذا النبى ممن أنكروا دعوته .

وهكذا فعل برنارد شو فى المسرحية : انتقد الحضارتين الاغريقية والرومانية وهمـــا من أهم اسس الحضـــارة المسيطرة فى العالم فى العصر الحـديث وهى الحضارة الغربية ، ثم انتقد الحضارة الغربية ذاتها ، وكانت هذه هى المرحلة الاولى . ثم وصف محمدا عليه الصـــلاة والسلام ، تحت اسم قيصر ، من الجوانب التى اراد ابرازها باعتباره تجسيدا للاسلام ، وكانت هـــذه هى المرحلة الثانية . وأخيرا رد على بعض المطاعن التى وجهت اليه وكانت هذه هى المرحلة الثالثة . أما اسس الاسلام ذاتها فقد ترك للقارىء الذى يهمه الامر أن يرجع اليها فى ترجمة القرآن أو فى غيرها من المراجع .

نقد الحضارة الاغريقية

الحضارة الاغريقية جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية المعاصرة ولذلك فانها تدرس لتلاميذ المدارس وكذلك فى كليات الآداب بالجامعات الغربية كجزء أساسى من مواد الدراسة ، كما تدرس بصورة مختصرة فى المدارس وكليات الآداب خارج العالم الغربى كجزء من الثقافة العامة .

وقد أبدى برنارد شو فى المسرحيــة رأيه فى هــذه الحضارة ممثلة فى واحدة من الممالك التى بلغت فيها أوجها على مدى ثلاثة قرون وهى مملكة البطالسة فى مصر .

ووردت أول ملاحظة لشو عن هذه الحضارة فى السطور الاولى من المسرحية حيث قال فى التوجيهات المسرحيــة التى يصور بها المشهد فى « بديل البرولوج » أن تحت النجوم « نقيصتين من نقــائص الحضــارة هما قيصر وجنود » . وهذا القول على ايجازه يلخص رأى شو فى الحضــارة الاغريقيــة التى بدأت بحــروب الاســكندر الاستعمارية التى استولى بها على عدة بلاد بعد أن قتل من ابنائها من قتل واستعبد من استعبد ونهب ثرواتها لكى يفتنى الافريق ويبنون القصور .

وقد خصص المؤلف جانبا كبيرا من المسرحية ليدلل على أن الحضارة الافريقية الهلنستية حضارة متأخــرة رغم مظاهرها الخلابة وأن فلسفة فلاسفتها لم تؤثر كثيرا على معتقدات الناس التى ظلت بدائية تقوم على الخرافة والاساطير : فالضباط الافريق « المصريون » يعتقدون أنهم من سلالة الالهة ، وحامل الانباء السارة يذبح ويقدم للآلهة كقربان لا تقبل دماء من يحمل أنباء سيئة ، والذعر يصيب الجميع حين يعلمون أن القط الابيض المقدس قد

سرق لانهم توقعوا ان يجر عليهم ذلك ويلات فظيعة ، وكليوباترا تنحدر من جهة أبيها من نهر النيـل وكانت جدتها الكبرى قطيطة سوداء ولدتهـا القطة البيضـاء المقدسة ، وهى نفسها رئيسة الكهنة وهى تقدم القرابين لابى الهول فى عيد ميلادها ، وهى تعتبر أن أبا الهول كائن حى وتطلب منه حين ترى قيصر أول مرة أن يعض قيصر قبل أن يأكلها ، وهى تعتقد ان الرومان سيفترسونها هى وباقى المصريين افتراسا حقيقيا ، وهى تصدق ما قيل لها من ان ابا قيصر كان نمرا وأن أمه كانت جبلا مشتعلا، وهى تؤمن بأن القط الابيض المقدس قد حول قيصر الى ضابط رومانى ، و « مارك انطونى » فى نظرها اله ، وكذلك قيصر . والحضارة الاغريقية تحتقر المرأة ، وقد اقترح قائد الحرس قتل جميع نساء القصر قبل وصول الرومان ولم يعترض أحد من رجاله على هذا الاقتراح ، « وفتاتاتيتا » تهدد « بلزانور » حين توعدها بالقتل ان لم تدله على مكان كليوباترا بأنه ان مسها لن ترتفع مياه النيل الى أراضيه سبع سنوات ، وبطليموس يقول أن اخته كليوباترا قد سحرت قيصر بمساعدة « فتاتاتيتا » . لتجعله يقف فى صفها ضده ، وأستاذ الموسيقى يقـول لكليوباترا أنها لكى تتعلم العزف على الهارب لابد أن تجيد فلسفة « بثاغوراس » و « بوثينوس » يقول لقيصر أن المصريين يعتبرون أن الهة قيصر لا تغلب لانها جعلته يقاوم مدينة بأكملها وأن قدرته على استخراج الماء العذب من البحر تجعل منه صانع معجزات ، وأن قيصر أقوى من الهتهم لأنه يقاوم الريح التى أرسلتها الهتهم لتبقيـه فى أيديهم ، وكليوباترا تأمر باحضار سلفها الاله النيل لتطلب منه اعطـاء اسم للمملكة الجـديدة التى قال قيصر انه سيقيمها لها عند منابع النيل فيجىء كاهن وهو يحمل

تمثالا صغيرا لأبي الهول ومعه ركيزة ثلاثية القوائم فيها بخور وتقول كليوباترا أن هذا الاله سيتحدث لو أن قيصر سكب له شيئا من الخمر ثم تطلبمن «النيل ـ أبي الهول» إن يسمعهم صوته ، والكهنة يذهبون الى مقابلة قيصر قبل رحيله من مصر وقد أهالوا الرماد على رءوسهم وحملوا آلهتهم ثم يضعونها عند اقدام قيصر ، ويهول الأمر الضباط لا سيما حين يعلمون إن رئيس الكهنة باع الاله « أبيس » لقيصر ويتوقعون ان تعم المجاعة والعواصف الارض .

هذه صور مختلفة لمعتقدات الاغريق حرص شو على تسجيلها فى المسرحية ليثبت ما فيها من سخف ووثنية ، لا على مستوى الرجل العادى والضباط وحسب بل على مستوى أعضاء البيت المالك ـ بطليموس وكليوباترا ـ الذين يفترض أنهم تلقوا العلم على يد خيرة الاساتذة والمعلمين ، وعلى مستوى رجال البلاط الملكى .

ولا يقتصر نقد برنارد شو للاغريق على عاداتهم ودياناتهم بل هو يتناول اخلاق الاسرة المالكة والطريقة التى كان البطالسة يحكمون بها مصر . ان ملوك هذه الأسرة وطبقتها الاغريقية الحاكمة بدلا من أن يهتموا بخير الشعب المصرى ومصالحه كانوا يحكمونه حكما امبرياليا خالصا وكان همهم الوحيد هو الاحتفاظ بالسلطة والانغماس فى الملذات التى تتضح فى ألوان الطعام والشراب الفاخرة التى أعدتها كليوباترا لوليمة قيصر . اما العلوم والفنون والآداب التى ازدهرت فى ظل الحضارة الاغريقية فانها لم تفد شيئا فى تهذيب أخلاق الحكام والارتفاع بمستوى احلامهم . وكانت النتيجة ان الاغريق ، بعد أن كانوا يحاربون العالم الخارجى ، أصبحوا يحاربون بعضهم

البعض وأصبح أفراد أسرة بطليموس يعبئون الجيوش ويستعينون بالقوى الخارجية ليحارب أحدهم الآخر وأصبح القتل ــ وقتل الاقارب الحميمين ــ محور حياتهم ، وانقسم الاغريق الموجودون فى مصر سواء كانوا من الجنود أو من المدنيين ، بطبيعة الحال ، فى هذه الحرب الداخلية فأصبحوا يقتلون أنفسهم بعد أن كان الاغريق فى أيام الاسكندر يقتلون أبناء الشعوب الاخرى ، ويقتلون من لجأ الى حماهم كما قتلوا « بومبى » التماسا للحظوة عند قيصر .

وقد وصف « شو » الملكة الاغريقية كليوباترا وصفا لم يتنبه النقاد الى أنه ــ مثل وصف قيصر المسرحية ــ غير مطابق للصورة التى تركها التاريخ عن هذه الملكة . لقد جردها المؤلف تماما من أى صفة ايجابية وجعلها شرا خالصا ليتخذ منها محصلة وتجسيدا لسيئات الحضارة الاغريقية كما يراها ثم ليجعل منها الصورة العكسية لقيصر . ان كليوباترا المسرحية فتاة متعطشة لسفك الدماء لا تقيم وزنا لأرواح الناس وترى أن خير وسيلة لاثبات قوتها ولحل المشكلات هى القتل . انها تقول لقيصر فى الفصل الاول أنها ستعيش فى قصر الملك بالاسكندرية بعد أن تقتل اخاها ، وأنها حين تكبر ستقتل بالسم من تشاء من العبيد ، ثم هى تقول فى الفصل ذاته أنها تحب الرجال ذوى العضلات المفتولة وتحب أن يكون لها منهم كثيرون وانها متى شبعت منهم ستضربهم بالسياط حتى الموت . وهى تطلب من قيصر أن يقطع رأس أخيها ورءوس رجال حاشيته . وهى تهدد وصيفتها « فتاتاتيتا » وتقول أنها ستلقى بها فى نهر النيل أن هى لم تنفذ أوامرها . وحين قال لها قيصر أن « بارك

انطونى » موضع اعجاب كثير من النساء أجابت بأنهـا ، متى جاء ، ستجعله يقتلهن جميعا . وحين ذهبت كليوباترا الى قيصر فى الفنار والمصريون يحاصرون قواته من كل جانب طلبت منه ألا يتركها وحدها . فلما نبهها «روفيو» الى أن حياة أفراد الجيش الرومانى ستتعرض للخطر ان لم يصل قيصر الى المتاريس قبـل المصريين اجابت : « فليموتوا فهم مجرد جنود » . وحين قال لها قيصر ان حضورها الى الفنار أغضب « روفيو » وأحدث صدمة لبريتانوس قالت له : « اقطع رقبتهما » وقالت كليوباترا لمدرس الموسيقى انها ستعطيه أسبوعين ليعلمها العزف على الهارب وانها بعد انقضاء هذه الفترة ستعاقبه على كل خطأ تخطئه فى العزف بجلده وان أخطاءها اذا بلغت عددا يجعل عقابه بالجلد يستغرق وقتا طويلا ستأمر بالقائه فى النيل لتأكله التماسيح . وتعترف كليوباترا لوصيفاتها فى الفصل الرابع بأنها تشبه أباها فى قسوة القلب . وتأمر كليوباترا « فتاتاتيتا » بقتل « بوثينوس » لانه كشف عن نواياها لقيصر ، بهذه الكلمات : « ألقى به من فوق الجدار وهشميه على الصخور : اقتليه ، اقتليه ، اقتليه » .

وقد أورد « شو » بعض انتقاداته للاغريق على لسان « الفارسى » الذى جعله من رجال الحـرس عند بدء المسرحية . ولا يستبعد أن يكون المؤلف قد خلق شخصية هذا الفارس كرمز للفرس الذين هزمهم الاسكندر فى آسيا الصغرى وفى منطقة الشرق الاوسط وفى مصر وقتل منهم أعدادا كبيرة ، وخلع عليه من صفات الذكاء والعلم وبعد النظر ما لم يخلعه على الضباط الاغريق الذين يمثلون الامة المنتصرة ، وذلك تأكيـدا للمعنى الـذى عبـر عنـه فى

« البرولوج » وفى كثير من كتاباته والذى مؤداه انه رب امة منهزمة فى الحرب خير حضاريا من أمة منتصرة . لقد غلب هذا الفارسى قائد الحرس فى لعبة القمار ، وكان هو الوحيد بين أعضاء الحرس الذى قال انه من سلالة بشر لا من سلالة الآلهة ، وانبأ الضباط الاغريق بأشياء عن بأس الرومان فى القتال لم يصدقوها الى أن أكدها الضابط « عفريس » الذى التقى بهم فى معركة . وحين اقترح قائد الحرس قتل جميع من فى القصر من نساء كان « الفارسى » هو الوحيد الذى نبهه الى مغبة هذا الاجراء.

وبعد أن انتقد « شو » معتقدات الاغريق واخلاقهم انتقد علومهم التى اشتهرت بها الاسكندرية التى كانت قبلة العلماء على مدى ثلاثة قرون ، والتى كانت ابرز صورها مكتبة الاسكندرية الشهيرة . وقد كتب « شو » بشأن حريق هذه المكتبة حوارا خلاصته .

ان حياة انسان واحد أثمن عند قيصر من مكتبة الاسكندرية وما فيها من الكتب بينما هى تساوى فى نظر « ثيودوتوس » أكثر من حياة عشرة آلاف رجل ، وان قيصر يرى ان هذه الكتب ـ التى يصفها بأنها جلود غنم سطرت عليها أخطاء ـ تمنع الناس من أن يحيوا حياتهم وتجعلهم يبددونها فى الاحلام وانها مالم تتملق مشاعر الناس ستعتبر شيئا خطرا يستحق الحرق .

نقد الحضارة الرومانية

الحضارة الرومانية ـ شأنها فى ذلك شأن الحضارة الاغريقية ـ قامت على الحرب الامبريالية اى على فتح البلدان بقوة السلاح واستعمارها على أساس من القوة

العسكرية . وكما لخص برناردشو الحضارة الاغريقية في السطور الاولى من « بديل البرولوج » في كلمتين همـا « قصر وجنود » ، وكما اعتبر أن القصر والجنود «نقيضان من نقائض الحضارة » فانه لخص الحضارة الرومانية في كلمات « البرولوج » التى يقول فيها الاله « رع » ان « الرومان بدءوا بسلب أموال فقرائهم فلما تم لهم ذلك شرعوا في نهب أموال الفقراء في البلاد الاخرى واضـافوا هذه البلاد الى ملك روما فاغتنت روما وازدادت رقعتها»

ولأن « شو » كان يكره الامبراطوريات ويكره الجنود ويكره القتل والنهب ويكره الغنى والقصور التى تبنى على السلب والنهب فان حكمه على الحضارة الرومانية كان ذات الحكم الذى أصدره على الحضارة الاغريقية ، أى انها حضارة قامت على اهدار النفس البشرية واستباحة كل ما تحرمه المبادىء الانسانية العليا وأن الانجـازات التى حققتها في مراحلها الاخيرة انجازات أقيمت على جماجم وحريات شعوب البلاد المستعمرة وسلب مواردها وانهـا لذلك ، قبل كل شيء ، حضارات باغية مهما جملت نفسها بعد ذلك بمظاهر العلم والتقدم .

وكما حدث في امبراطورية الاسكندر التى اقتسـمها جنرالات جيشه فيما بينهم بعد موته ، وكما حـدث في مملكة البطالسة في مصر ، التى أدى تكالب أفراد أسرتها المالكة على الملك الى خلافات وحروب داخلية ، انقسمت الامبراطورية الرومانية على نفسها وقامت فيها حـروب داخلية بين جيش « بومبى » وجيش قيصر وكلاهما جيش رومانى ، ثم اصبح جيش « أشيلاس » الرومانى في مصر

حليفا لجيش بطليموس اليونانى ضد جيش قيصر الرومانى وقد سجل « شو » هذه الحروب فى مسرحيته كدليل آخر على ان الامم المعتدية تدفع فى النهاية ضريبة اعتداءاتها من أرواح أبنائها وأن الامبريالية العسكرية مآلها دائما الى زوال .

ورغم ان نقد شو للحضارة الرومانية كان فى جوهره لا يختلف عن نقده للحضارة الاغريقية نظرا لتماثل الحضارتين فى نشأتهما وأساليبهما فان نقده للحضارة الرومانية كان مباشرا ومركزا وقد جاء معظمه فى خطاب الاله « رع » للجمهور البريطانى فى « البرولوج » الذى أضافه المؤلف الى المسرحية بعد ١٤ عاما من صدورها . وقد لخصنا هذا الخطاب فى مختصر المسرحية .

وقد جاء بعض النقد أيضا على لسان قيصر فى مواقع مختلفة من المسرحية أشرنا اليها ، من اهمها اعتراف قيصر الوارد فى الفصل الثانى حين ذكره « لوسيوس » بالرءوس والأيدى التى قطعها فى فرنسا والبلاد المحيطة بهاوبافتياله للبطل « فرنسنجتوركس » الذى كان أسيرا عنده ، فقد قال قيصر حين سأله « لوسيوس » أكان هذا انتقاما من جانبه : « لا بحق الالهة . ليته كان انتقاما . الانتقام على الأقل شىء آدمى لا . تلك الأيدى اليمنى المقطوعة تصرع و « فرسنجتوركس » الشجاع الذى خنق فى خسة ودناءة فى القبو الذى كان محبوسا فيه أسفل « الكابتول » ، كانت من مقتضيات الحكم .. حماقات وأوهام تريق من الدماء أكثر عشر مرات مما يريقه الانتقام البسيط » . وهذا هو الحكم الذى أصدره قيصر المسرحية على قيصر التاريخ .

لقد جعل « شو » من « بريتانوس » رمزاً للانجليز كما جعل كليوباترا رمزاً للحضارة الافريقية «وأبولودوروس» انه جسد فيها عيوب الانجليز كما يراها وكما وصفها فى عدد كبير من كتاباته . والملاحظة الثانية هى أنه استخدم فيها أسلوب النقد عن طريق السخرية التى تضحك ـ كما فعل الى حد ما فى معالجة شخصية « أبولودوروس » ـ لكى يخفف من جدية موضوع المسرحية . والملاحظة الثالثة هى أنه أراد ، هنا أيضا ، أن يجعل من «بريتانوس» الصورة المقابلة لقيصر المسرحية وأن يبرز عن طريق سلبياته ايجابيات قيصر .

ويمكن ايجاز السمات الاساسية التى تنطلق بها أقوال « بريتانوس » فى أنه أولا يحكم على العالم كله من خلال المنظور البريطاني وحده وثانيا فى اهتمامه بالمظاهر والشكليات والتقاليد واهماله للقيم الحقيقية .

انه ، كما قال قيصر ، همجى يتصور أن عادات قبيلته اى الشعب البريطانى وجزيرته أى الجزر البريطانية من قوانين الطبيعة أى انه غير قابل للتغير أو التطور أوالاقتناع بحقائق غير مادرج عليه . وهو يصر على هذا الطبع اصرار الانجليز على طبعهم فيقول ان المصريين هم الهمج . انه يشبه « روما القديمة » التى وصفها الاله « رع » والتى كانت تنظر الى الامور بمنظار « الرجال الصغار » والتى كان يدافع « بومبى » عنها وعن قوانينها ، بخلاف قيصر الذى كان يمثل « روما الجديدة » . ولأن « بريتانوس » من أنصار القديم الجامد المتحجر فهو دائما يتحدث عن « واجب قيصر روما » الذى يحتم عليه أن يمنع اعداءها من ارتكاب مزيد من الجرائم ، و « واجبه حيال

بلده » الذى يفرض عليه استيفاء دين روما على مصر ، ويذكره « بشرفه وشرف روما » فى موضوع رسائل أنصار « بومبى » التى عثر عليها ، ويسوغ انتقام كليوباترا من بوتينوس على اعتبار أن « الخيانة والغدر لو تركا دون عقاب لأصبح المجتمع كالساحة المليئة بالوحوش » ويتحدث بهذه الصيغ المحفوظة وكأن العالم الذى كان يعيش فيه فى بلده أو خارج بلده عالم مثالى خلا من المشكلات ولا يصح المساس به .

أما تمسك « بريتانوس » المبالغ فيه بالمظاهر والشكليات والتقاليد فيتضح من أقوال ومواقف أخرى عديدة يطول شرحها .

وعقلية « بريتانوس » هى عقلية « الجنتلمان البريطانى » الجنتلمان الذى يعتبره عامة الانجليز ومسرحهم المثل الاعلى للسلوك الراقى ، وهى العقلية التى قضى برناردشو حياته فى مهاجمتها والسخرية منها واظهار ماتنطوى عليه من سخف وتفاهة ونفاق والتى كان يعتبر أنها المسئول الأول عن احباط جميع محاولات المصلحين للنهوض بأفكار الانجليز ومعتقداتهم .

تقديم النبى

بعد أن انتقد برناردشو تجارب الحضارات الاغريقية والرومانية والبريطانية مبرزا نقائصها وجنايتها على الجنس البشرى بقى عليه أن يقدم العلاج الذى هداه بحثه اليه . وقد وجد « شو » أن خير طريقة لعرض هذا العلاج هى التحدث عن نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم

وعن رسالته . ولكن هذا لم يكن بالامر اليسير . وقد شرحنا فى مقال « كيف تحايل برنارد شـو على الرقابة والقراء » طبيعة المشكلة التى واجهها المؤلف حين فكر فى كتابة مسرحية عن نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم والاسباب التى جعلته يؤثر التحدث عنه *بطريقة الكتابة الرمزية . ونزيد الآن على ما قلناه أن « شو » كان يعلم ان المسلمين لا يحبون أن تعالج شخصية رسولهم معالجة مسرحية أو أن يتقمص ممثل هذه الشـخصية . ولا يستبعد أيضا أنه كان يتوقع الا يفهم المسلمون أو الا يتقبلوا طريقته المتحررة فى التعبير عن اعجابه بنبيهم الكريم . وكان يعلم من الجهة الاخرى أن الناس فى الغرب تعاف الاسلام ونبيه كما يعاف الطفل الدواء المر . وكان يعلم ولا شك أن طعم الاسلام المر فى المجتمعات الغربية يرجع لعدم فهم عميق لجوهر الاسلام ولرسالته الاصلاحيـة ولعظمة نبيه وذلك بتأثير عاملين : تخلف المسلمين الحضارى فى العصر الحديث ثم الظروف التاريخية التى ترجع الى أيام الفتوح الاولى حين استولت جيوش المسلمين على كثير من البلاد التى كانت تحت حكم الامبراطورية الرومانية الشرقية فى آسيا وشمال أفريقيـا ، وعلى اسبانيا ، ونشرت عليها لواء الاسلام ، والى الحملات الصليبية المتوالية التى شنها العالم المسيحى فى أوروبا على بلاد المسلمين فى الشرق الاوسط على مدى قرنين أو أكثر من الزمان ثم حروب ملوك اسبانيا الكاثوليك ضد الحكم الاسلامى التى استمرت من القرن الحادى عشر الى سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٢ وانتهت بطرد المسلمين نهائيا من اسبانيا أو اكراههم على اعتناق المسيحية وعودة هذا البلد الى أحضان الديانة الكاثوليكية ، كما ترجع الى

حروب سلاطين آل عثمان المظفرة ضد الاوربيين طوال قرون واخضاعهم دولا بأكملها لسلطانهم فى بعض بلاد شرق أوروبا كاليونان ورومانيا وبلغاريا والصرب والبانيا وبعض بلدان منطقة البلقان ثم ثورة هذه البلاد كلها على الحكم التركى بمساعدة واشتراك الدول المسيحية الكبرى كانجلترا وفرنسا وروسيا ، وانتصار هذه الثورات واخراج الأتراك نهائيـــا من أوروبا ، وحـــروب الدولة العثمانية المتكررة مع روسيا القيصرية المسيحية وانتصار روسيا عليها فى النهاية واستيلائها على بعض بلاد المسلمين التى كانت تابعة لتركيا .

كان برنارد شو يعلم كل هذا ويرى أن الغرب مخطىء فى عدائه التاريخى للاسلام وفى احتقاره للمسلمين الذين كانت أكثر بلدانهم خاضعة فى زمانه للاستعمار الغـــربى البريطانى أو الفرنسى أو الهولندى وكانت تعتبر من أكثر بلاد العالم تخلفا . وكان يعتقد أن فى هذا العداء خسارة كبرى وأن الغرب والعالم يكسبان كثيرا اذا فهما الاسلام على حقيقته .وادركا ما بينه وبين المسيحية الحقة من صلة ايجابية وانهما فى الواقع ليسا دينين مختلفين بل وجهان لدين واحد وان البشرية فى أمس الحاجة لمن يكشف لهما عما ينطويان عليه من امكانيات اصلاحية .

وآنس « شو » فى نفسه قدرة على شرح المسيحية الصحيحة والاسلام الصحيح للقارىء الغـربى . وبنى شرحه لما يعتقد أنه المسيحية الصحيحة على نقد مفهوم الكنائس المختلفة للدين المسيحى وتحدث فى هذا الموضوع بمنتهى الصراحة والحرية وشجعه على ذلك أن غيره من المفكرين والكتاب قد سبقه فى هذا الباب منذ زمن طويل . اما فيما يتعلق بالاسلام فقد كانت مهمته أشق من ذلك

بكثير وكان عليه أن يحطم طبقات متراكمة من الافكار بشأن هذا الدين وكانت محاولات من سبقوه فى هذا المضمار محاولات جزئية مستحيية . وقد خشى « شو » قطعا أن هو عبر عن رأيه فى الاسلام ونبيه بصراحة كاملة أن يقاطعه قراؤه من غير المسلمين وربما ناشروا كتبه ، وأن يضيع الغرض الذى كان يسعى اليه من التعريف بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ودينه . لذلك آثر التعبير الرمزى وترك لمن يدرسون مسرحياته مهمة كشف سره وحل رموزه على أساس ما ذكره صراحة ـ باختصار شديد ـ عن اعجابه بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وبالاسلام من ناحية ، وما قدمه هو للقارىء من « مفاتيح » تعينه على فهم مراميه الخفية ، من ناحية أخرى .

هذا هو تصورنا لبواعث « شو » فى اختيار اسلوب الرمز بصدد حديثه عن محمد (صلى الله عليه وسلم). وقد تكون هناك بواعث أخرى غابت عن فطنتنا أو يكون قد اختار هذا الاسلوب متأثرا بأبسن ومترلنك وغيرهما اى لاعتبارات أدبية بحتة .

وقد ذكرنا فيما سبق بعض ما كتبه برنارد شو صراحة عن اعجابه بالنبى (صلى الله عليه وسلم) وسنحاول فى الصفحات التالية أن نكشف معنى الرموز أو المفاتيح التى خبأها فى المسرحية أو فى كتاباته الاخرى ثم نتحدث عن المقابل القرآنى لأغراض المسرحية ولصفات قيصر اى محمد (صلى الله عليه وسلم) فيها ، ثم عن دفاع المؤلف فى المسرحية عن محمد والاسلام .

المفاتيح

فى المسرحية عدد من الرموز أو « المفاتيح » التى لا يمكن

أن يكون المؤلف قد وضعها فيها اعتباطا أو بفعل الصدفة، وهى تشير الى أن الشخصية التى تختفى وراء شخصية قيصر هى شخصية محمد . وفيما يلى ما اكتشفناه من هذه المفاتيح وقد تكون فى المسرحية مفاتيح غيرها :

١ ــ سن قيصر حين وصل الى مصر قريب من سن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين وصل الى المدينة مهاجرا من مكة ليواجه أوضاعا لا تخلو فى اطارها العام من شبه بالاوضاع التى واجهها قيصر فى مصر : قلة عددية ، أقوات محدودة ، أعداء فى الداخل والخارج ، منافقون هم أصدقاء اسما وأعداء عملا ، معارك وأسرى ومشكلات ملحة تحتاج الى حل عاجل .

٢ ــ وضع المؤلف العبارة التالية على لسان الوصيفة « فتاتاتيتا » عندما هددها رئيس الحرس « بلزافور » فى « بديل البرولوج » بقطع رقبتها ان هى لم تنبئه بمكان كليوباترا : « أن مستنى فان النيل لن يرتفع الى حقولك سبع مرات لسبع سنوات من المجاعة » وواضح أن هذه العبارة تحيل الى عبارة مشابهة وردت فى سورة «يوسف» من القرآن الكريم ، التى فسر فيها يوسف حلم فرعون الذى رأى فيه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات فقال ان البقرات العجاف السبع والسنبلات السبع اليابسات ترمز الى سنوات سبع شداد « يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون » . اى الى سبع سنوات من المجاعة ، (وهذه القصة واردة فى الكتاب المقدس أيضا) .

٣ ــ يظهر « روفيو » فى الفصل الثالث وقد ملأ خوذته تمرا ووضعها بين ركبتيه وجعل يأكل من هذا التمر

بعد أن قضى سحابة نهاره فى القتال غير بعيد من الفنار. ويأتى قيصر بعد قليل فيقدم له روفيو حفنة من التمر . ويأخذ قيصر التمرات ويأكل منها وهو يتحدث الى « روفيو » ثم يتوقف لهذا الاخير بانشراح مفاجىء : « ما ألذ هذه التمرات يا روفيو » . ان تمر البلح هو فاكهة الجزيرة العربية . واذا أريد الرمز الى موطن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بفاكهة فليس هناك رمز أبلغ فى الدلالة من تمر البلح ، واذا أريد تصوير نبى الاسلام وهو يأكل شيئا أثناء المعركة فليس من الممكن أن يكون هناك كالتمر رمز يشير اليه . ومصر وان كانت تنتج تمر البلح فليس لبلح فاكهتها الاولى .

٤ ـ تحدث « شو » أيضا فى المسرحية عن سوق فى الاسكندرية اسمه « سوق التين » . وهنا أيضا يمكن ان يقال أن التين وان كان من فواكه مصر ليس فاكهتها الاولى ولا يعقل أن يسمى باسمه وحده سوق الخضر والفاكهة . والأرجح أن المؤلف أراد أن يشير فى هذا الموضع الى سورة « التين » من القرآن التى تبدأ باسم هذه الفاكهة .

٥ ـ قدمت لقيصر فى الوليمة التى اقيمت فى القصر فى الفصل الرابع أنواع شتى من النبيذ الفاخر ليختار من بينها ولكنه رفضها جميعا وطلب ماء شعير . ومن الممكن أن نرى فى هذا اشارة الى تحريم الخمر فى الاسلام .

٦ ـ لما أصرت كليوباترا واصر « أبولودوروس » على ان يختار قيصر نبيذا اختار النبيذ الذى تنتجه جزيرة « لسبوس » من جزر بحر « ايجه » . وكانت «لسبوس» فى الوقت الذى كتبت فيه المسرحية تحت الحكم التركى الاسلامى ولم تطرد منها تركيا الا عام ١٩١٢ .

٧ ــ جزيرة صقلية التي كان « أبولودوروس » من أبنائها كانت جزيرة عربية ثم استولى عليها النورمان فى أوائل الحروب الصليبية .

٨ ــ اشارة قيصر الى « قبيلة » بريتانوس والى « جزيرته » رمزان محتملان للمجتمع الذى نواته القبيلة فى الجزيرة العربية . وهو المجتمع الذى ظهر فيه رسول الاسلام (صلى الله عليه وسلم) . والاشارة الى همجية (أوبربرية) « بريتانوس » قد تكون اشارة للجاهلية .

٩ ــ فى الفصل الخامس من المسرحية يظهر ابولودوروس وحوله الضباط المصريون والجندى الفارسى الذين ظهروا اول مرة فى « بديل البرولوج » . ويسأل الجندى الفارسى « ابولودوروس » عن الاخبار وعما اذا كان قيصر قدقتل الكهنة فيجيب « أبولودوروس » بالنفى ويضيف ان الكهنة جاءوا بين يدى قيصر وهم يحملون آلهتهم ثم وضعوا الآلهة عند قدميه . وقد أراد « شو » بهذه الرواية ، فى نظرنا ، أن يسجل بصورة رمزية حقيقة هامة من حقائق الاسلام هى أنه دين الوحدانية وأن نبيه حارب الوثنية دون هوادة ولم ينتقل الى جوار ربه الا وقد قضى عليها وحطم الاصنام . ويلاحظ هنا أن قيصر التاريخى ، شأن باقى الرومان ، كان أبعد ما يكون عن الايمان بوحدانية الله وانه كان وثنيا وكان ، كما رأينا فى النبذة التاريخية ، رئيسا للكهنة فى روما عندما كانت ديانة الرومان ديانة متعددة الآلهة . كذلك فان المؤلف جعل قيصر ، حين سألته كليوباترا ذات مرة عما اذا كان قد صنع له تمثال ، يقول أن له عدة تماثيل . وكانت بعض التماثيل عند الرومان تعبد كما كانت تعبد الاصنام فى الجزيرة العربية فى عصور الجاهلية . وقد تحدث

برنارد شو عن موقف الاسلام من الوثنية اكثر من مرة فى كتـاباته وكان ينعى على المسيحيين مقابل ذلك خرقهم للوصية الثانية من وصـايا موسى العشر التى جاءت فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج والتى نصها : « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السـماء من فوق وما فى الارض من تحت وما فى المـاء من تحت الارض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن » . وكان يثني على الاسلام الذى قام على حرب الاوثان من اول يوم والذى كان نبيه يحرص ، لئلا يعبده الناس كما عبد النـاس ملوكهم فى الماضى ، على تأكيد آدميته ، والذى داب قرآنه على نفى صفة الالوهية عن جميع البشر بلا استثناء .

١٠ ــ بعد أن نفذت « فتاتاتيتا » فى الفصل الرابع أمر كليوباترا بقتل « بوتينوس » قالت كليـوباترا تبـريرا لفعلتها : « اذا كان فى الاسكندرية كلها رجل واحد يقول اننى أخطأت فأنا على استعداد لأن أصلب على بوابة القصر بيد عبيدى » . فرد عليها قيصر قائلا : « اذا أمكن العثور فى العالم كله على رجل واحد . الآن أو على مر السنين . يعلم أنك اخطأت فسيتحتم على ذلك الرجل أن يسود العالم كما فعلت انا ، والا فسيكون على العالم أن يصلبه » . وواضح أن من كان يعنيهما « شو » هنا هما محمد والمسيح عليهما السلام . وقد كان لكل منهما ولاتباعهما من بعدهما شأن كبير مع الاغريق والرومان . وهذا هو ــ بالتأكيد ــ ما قصد « شو » الاشارة اليه بهذه الجملة التى أوردها على لسان قيصر فى المسرحية .

١١ ــ روفيو وصف بعض كلام قيصر بانه « وعظ فى موضوعه المفضل عن مسائل الحياة والموت » والوعظ من

سمات الانبياء والائمة . لا من سمات القادة الحربيين .

وفيما عدا هذه المفاتيح الرمزية التي وردت فى المسرحية هناك اشارتان لاحقتان للمسرحية قرن فيهما محمد وقيصر . والراجح عندنا أن يكون « شو » قد أراد بهما أن يعطي القارىء الذى لم يفهم دلالة الرموز السابقة ـ اما لأنه لم يقرأ ما فيه الكفاية عن سيرة الرسول ، أو لسبب آخر ـ مفتاحين جديدين للشخصية التى يرمز اليها قيصر المسرحية .

وقد وردت أولى هاتين الاشارتين فى خطاب أرسله المؤلف الى صحيفة « نيوستيتسمان » فى ٣ مايو سنة ١٩١٣ ، أى فى السنةالتالية لكتابة « البرولوج » قال فيه أن قيصر كان يشبه محمدا فى حبه للنساء . أما الاشارة الثانية فقد وردت بعد الاشارة الاولى بربع قرن، فى مقدمة مسرحية « جنيف » (١٩٣٩) بمعرض الحديث عن طريقة حكم الغزاة للبلاد التى يضمونها لامبراطورياتهم وكيف أنهم اذا حكموا تلك البلاد حكما غير انسانى زالت دولتهم ، وأنهم اذا استعاضوا عن الوحشية بالحكم المتحضر خلقوا لأنفسهم سندا شرعيا فى الاراضى التى يغزونها ، فقال ان هتلر الذى لم يكن قيصرا ولا محمدا لم يعمل على تحسين أحوال الاهالى فى البلاد التى غزاها وأنهم لذلك لم يرحبوا بحكمه بل لعنوه فى كل مكان كما أن حكمه لم يدم طويلا . وقال نفس القول عنموسولينى . وانتهز مؤلفنا الفرصة لكى يذكر القارىء بأن الانجليز لم يكونوا خيرا من موسولينى فى البلاد آلتى اخضعوها لسلطانهم ، فقد استخدموا نفس الوسائل الوحشية التى استخدمها موسولينى لاخضاع الاحباش (بما فى ذلك الغازات السامة أحيانا) فى الولايات الشمالية الغربية

من الهنـد وفى استـراليا ونيـوزلنده وفى الهـايلاندز الاسكتلندية .

وقد لا يخلو مع غرابة ، بعد أن قال « شو » ان محمدا يشبه قيصر فى حبه للنساء ، أن تخلو مسرحية « قيصر وكليوباترا » من أحداث تثبت حب قيصر المسرحية للنساء وأن يقتصر الوجود النسائى فيها تقريبا على كليـوباترا « وفتاتاتيتا » . والواقع أن « شو » حين قرن بين اسم محمد واسم قيصر فى هذا الخصوص لم يكن يريد تقرير حقيقة تاريخية بل كان يلتمس وسيلة يضيف بها الى « المفاتيح » التى قدمها فى المسرحية مفتاحا آخر أوضح يسمح للقارىء بالاهتداء الى ان قيصر المسرحية هو محمد .

ومن الجهة الأخرى فان تشبيه قيصر بمحمد فى طريقة حكم البلاد التى يغزوها حكما متحضرا يؤدى الى تحسين احوال الاهالى ويخلق له سندا شرعيا فى تلـك الاراضى ويجعل الاهالى يرحبون به ، تشبيه لم يظهر له أثر فى المسرحية فان قيصر المسرحية لم يتسع وقته لتحسين احوال أهالى مصر بصورة تجعلهم يرحبـون به وكانت علاقاته كلها بالاغريق الذين كانوا يحكمون مصر ويستعمرونها ولم تكن له صلة فعلية بالاهالى وكانت آخر علاقة بينه وبين الاغريق هى علاقة حرب فى معركة الدلتا . كذلك فان اصلاحات قيصر التاريخى التى تتمثل فى الاعتراف لبعـض أراضى الامبراطورية الرومانيـة بحق المدينة أو بحقوق أخرى قريبة منه تخفف من وقر تبعيتها لروما وتمنحها بعض صلاحيات الحكم الذاتى لم تجعل الاهالى فى انحاء الامبراطورية الرومانيـة يرحبون بحـكم روما الاستعمارى كما لم تحقق لهذا الحكم صفة الدوام .

وأغلب الظن أن كل ما قصده « شو » من هذا التشبيه انما هو مجرد توجيه القارىء الى حقيقة أن قيصر المسرحية هو رمز لمحمد .

المقابل القرآني لأغراض المسرحية ولصفات قيصر فيها

ما دمنا قد وصلنا من تحليلنا للمسرحية الى أن قيصر فيها يرمز الى محمد ، وما دمنا قد اقررنا مع المؤلفين « ايرفن » و « ماجرى مورجان » تحت عنوان « أبعـــاد تمس أوضاع العالم وقوانينه » بأن اهتمام برناردشـــو ينصب لا على قيصر كفرد بل على العلاقة بين قوة يمثلها قيصر وبين شئون هذه الدنيا وان اثر هذه القوة لا ينصرف الى أي لحظة تاريخية محددة بل ينسحب على التـاريخ كله ، وبأن برنارد شو يجسد مجرى التاريخ فى حيـــاة بعض العظماء ويصور عظمتهم على انها نبوءة بعصر جديد ويقيم جديدة ، فقد يكون من المناسب أن نعود الآن الى « البرولوج » ونلقى عليه نظرة ثانية لاكتشاف ما قـــد يكون فيه من أبعاد جديدة ونرى هل لهذه الابعاد ، أن وجدت ، مقابل فى القرآن .

ان برناردشو يتحدث فى هذا « البرولوج » على لسان الاله « رع » ؟

ــ عن روما القديمة التي ظنت أن طـــريق الغنى والعظمة هو نهب الفقراء وقتل الضعاف وعن أن الرومان اصبحوا اساتذة فى هذا الفن وأنهم سنوا من القـوانين ما يضفى على أفعالهم طابعا من السلامة والامانة ، وأن « بومبى » نصب نفسه للدفاع عن هذه القوانين واعتبرها

شيء ورأى أن واجبه يفرض عليه أن يقتل من يخالفها ، وأن عقول الرومان ظلت صغيرة رغم اتساع سلطان روما فى الارض .

ـ من قيصر الذى آلى على نفسه ـ جاعلا اعتماده على الالهة ـ أن يحطم قانون روما القديمة ليشارك بنصيب فى حكمها مستخدما فى ذلك موهبة الحكم التى آتته اياها الآلهة .

ـ عن أن قيصر كان فى جانب الآلهة ، وطريق الآلهة هو طريق الحياة . وانه كان متحدثا عظيما وأنه كان يشترى الناس بالكلمات والمال وانه مارس الحرب فى وقت متأخر فى حياته حين رأى أن الناس لا تكتفى بالكلام والذهب وان أولئك الذين ناصبوه العداء حين كان يسعى لما فيه خيرهم عنت له جباههم حين قاتل وقتل وأصبح فاتحا .

ـ عن أن « بومبى » هو وقوانينه وواجباته انتصر على قيصر فى البداية ووقف فوقه وفوق العالم ولكنه سقط بعدها الى أسفل سافلين .

ـ عن أن الانجليز يجب أن يتعظوا بما حدث لروما القديمة جزاء غرورها وظلمها وشهواتها وحماقاتها وألا يستسلموا للغرائز الامبريالية التى تدفع الناس الى اغتصاب وظيفة الآلهة والتحكم فى رقاب الناس وازهاق أرواحهم .

ـ عن أن الانجليز قوم لا يفقهون ولا يتعلمون وانهم لا يختلفون فى شيء عن الرومان الذين عاشوا قبلهم بعشرين قرنا .

وقد وجدنا فى القرآن مقابلا لكثير من هذه العناصر مما يرجح لدينا أن برناردشو كان ، وهو يكتب المسرحية ، يعمل ـ أن صح هذا التعبير ـ فى اطار مما جاء فى هذا الكتاب الكريم . وفيما يلى بعض الاشارات القرآنية التى يمكن ، فى رأينا ، أن تعتبر مقابلة لما جاء فى « البرولوج » .

١ ـ الخطاب يتحدث عن الرومان وفى القرآن سورة كاملة تتكون من ٦٠ آية اسمها « سورة الروم » وكان الروم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم من رعايا بيزنطة التى كان اسمها « الامبراطورية الرومانية الشرقية » .

٢ ـ حديث الاله « رع » يربط النصر والهزيمة بارادة الآلهة وسورة الروم تقول : « بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » (الآية ٥) وتقول : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين اجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين » (الآية ٤٧) .

٣ ـ الخطاب يوصى الانجليز بالا يفتروا بقوتهم وبأسطولهم وبأن يعتبروا بما حدث لبومبى ولروما القديمة التى كان لها امبراطورية كامبراطوريتهم . والاله « رع » يتنزل للنظارة من الجهة الاخرى « لقد جئت اليكم لأعود بكم الى الوراء ألفى سنة فوق قبور ستين جيلا . لاتظنوا ، أيها الخلف التعس ، أنكم أول الناس فقد سبقكم حمقى آخرون رأوا الشمس تشرق وتغرب ورأوا القمر يغير شكله وساعته ، وشأنكم الان كشأنهم فى الماضى ، وأنتم لستم فى مثل عظمتهم » . فروح خطاب الاله « رع » اذن هى روح الوعظ التعليمى الذى يذكر الناس بالتاريخ القديم ليستخرجوا العبرة والدرس . وهذه هى نفس

الروح التى يجدها المرء فى القرآن بل هى الروح الغالبة فى القرآن استعارها المؤلف فيما يبدو لنا ليذكر بالقرآن وبما جاء فيه ولانه وجد فيها مقابلا لما يجيش فى صدره ولما يريد أن يقوله للناس . ومن شواهدها فى سورة الروم الآيتان : « أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها . » (الآية ٩) و « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل .. » (الآية ٤٢) .

٤ ــ الاله « رع » يقول للانجليز : « انتم قوم لا تفهمون واى جهد يبذل فى تعليمكم جهد ضائع » وسورة الروم تقول : « فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين » (الآية ٥٢) وتقول « وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم » (الآية ٥٣) . وتقول « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » (الآية ٥٩) .

٥ ــ وكما أن آلاله « رع » يتحدث عن «أكوام التراب» التى يعيش الانجليز عليها كما يعيش العبيد ، والتى يسمونها بالامبراطوريات ، وينذرهم بأنها ستذهب أدراج الرياح بالرغم من أنهم يكدسون عليها أجداث أبنائهم الموتى ليصنعوا بها « مزيدا من التراب » . فان سورة الروم تذكر الناس بأنهم تراب فى هذه الآية : « ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون . » (الآية ٢٠)

٦ ــ أما أنصار روما القديمة . الذين ظلموا وبغوا وقتلوا فانهم بعض من تنصرف اليهم فى سورة الروم الآية

٢٩ التى تقول : « بل اتبـــع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم »

٧ ـ والحروب التى قامت بين الرومان شىء ممـــا تنصرف اليه آية « ظهـــر الفســـاد فى البر والبحـر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » (الآية ٤١) .

هذه هى بعض المعانى المشتركة التى يجدها المرء بين ما ورد فى « البرولوج » وما جاء فى سورة واحدة من سور القرآن الكريم . أما الآيات التى تنهى بالتفصيل عن جرائم روما القديمة كما وردت فى البرولوج ، أى عن قتل النفس التى حرم الله الا بالحق وعن الظلم والعدوان واكل أموال الناس بالباطل فلا حاجة بنا الى ذكر أمثلة لها لأنها أكثر من أن تعد .

وهناك فى « البرولوج » مسألة أخرى هامة تستحق أن نقف عندها . لقد صور برنارد شـــو الصراع بين « بومبى » وقيصر فى البرولوج على أنه صراع حول قانون روما الجديدة والواجبات التى يرتبها هـــذا القانون على الرومان . فقد كانت روما القديمة تعتقد ، على حد قول الاله « رع » ، « انه ليس هناك غنى ولا عظمة فى صفرنا: والغنى والعظمة لا يتأتيان الا بنهب أموال الفقير وقتل الضعيف ولذلك نهب الرومان أموال فقـــرائهم الى أن أصبحوا أساتذة كبارا فى هذا الفن وعرفوا ما هى القوانين التى يمكن عن طريقها جعل أفعالهم تبدو شريفة وأمينة. وعندما سلبوا أموال فقرائهم فلم يبق منها شىء . نهبوا أموال الناس فى بلاد أخرى الى أن ظهرت الى الوجود روما جديدة . غنية وضخمة . وضحكت أنا ، « رع » ، فان عقول الرومان ظلت على حجمها بينما انتشر سلطانهم فى

انحاء الارض . « واراد قيصر . لأنه كان فى صف الآلهة . التى كان طريقها « هو طريق الحياة » أن يحطم قانون روما وقال « انا ان لم احطم قانون روما فلن يمكننى ان اشارك فى حكمها وستذهب هباء ملكة الحكم التى انعمت على بها الآلهة » ولكن « بومبى » الذى كان جنديا قبل كل شىء ، « وطريق الجندى هو الموت » ، وقف لقيصر بالمرصاد وقال « القانون فوق الجميع واذا حطمته سيكون جزاؤك القتل » . ولم يفت هذا التهديد فى عضد قيصر فقال : ساحطمه وليقتلنى من يستطيع . وحطمه بالفعل. والسؤال المبدئى هنا هو : عن أى قانون يتحدث « رع »، وهل يتحدث عن القانون الرومانى بالمعنى الحرفى أم عن شىء آخر ؟.

من المفيد هنا أن نعلم أن القانون الرومانى القديم الذى جمع احكامه واصدره الامبراطور البيزنطى «جستنيان» (٥٢٨ ــ ٥٣٤ م) هو اشهر القوانين وابعدها اثرا فى تاريخ العالم وهو الآن ، مع بعض التعديلات المحلية ، القانون الذى يحكم معظم انحاء العالم باستثناء بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية (اللتين تأثر قانونهما بالقانون الرومانى أيضا الى حد كبير) وباستثناء البلاد التى تطبق فيها الشريعة الاسلامية وبعض البلاد القليلة الاخرى .

فهل حطم قيصر حقا هذا القانون ؟ المعروف تاريخيا أن قيصر ، كما رأينا فى النبذة التاريخية ، قد اتخذ اثناء توليه مقاليد السلطة فى روما تدابير للتخفيف عن بعض الفئات المغبونة التى كانت تعانى من وطأة بعض التشريعات ولاصلاح بعض الاوضاع الخاطئة او الظالمة ، ولكن كتب تاريخ القانون لا تشير الى ثورة تشريعية

حقيقية كان هو صاحبها . كما لا تذكر أن النزاع بينه وبين بومبى كان نزاعا على قوانين .

والتاويل الصحيح فى نظرنا لكلام الاله « رع » — أى لكلام برنارد شو — هو أن القانون يرمز الى الديانة وأن قانون روما القديم يرمز الى ديانات عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ، سواء فى داخل الجزيرة العربية أو خارجها ، وأن قيصر البرولوج هو قيصر المسرحية أى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأن محمدا كلف بتحطيم الاسس التى قامت عليها هذه الديانات اما لأنها — كديانات الجاهلية — تقوم على الوثنية والنظام القبلى أو لأنها — كديانة الامبراطورية الرومانية الشرقيـة — لم تبن على مبادىء الدين المسيحى الحقيقية بل على مبادىء القانون الرومانى القديم التى يرى المؤلف أنها مبادىء ظالمة لانها مبادىء امبريالية غير انسانية بنيت على القهر والنهب والقتل . أما « بومبى » فيرمز الى القوى التى حاربت محمداً فى حياته أو حاربت دينه بعد موته عليه السلام . ومن الثابت فى هذا الصدد أن برنارد شو كان يرى أن شريعة عيسى عليه السلام لم تطبق فى أى زمان أو مكان وأن المبادىء التى طبقت باسمها فى أوروبا المسيحية هى مبادىء « باراباس » المجرم الذى تذكر الأناجيل انه كان محكوما عليه بالاعدام والذى اختار اليهود أن يطلق الحاكم الرومانى « بيلاطس » سراحه حين خيرهم بينـه وبين السيد المسيح . وقد عبر برنارد شو عن هذا الرأى فى اكثر من موضع من كتاباته لا سيما فى مقدمة مسرحية « اندروكليس والاسد » .

واذا صح تأويلنا هذا فان الصفة الاولى من صـفات محمد التى أراد برنارد شو أن يسجلها فى « البرولوج »،

تحت ستار قيصر – بالاضافة إلى صفاته الاخرى التى سجلها فى المسرحية ذاتها – هى اذن صفته كثائر .
والراجح لدينا هو أن مؤلفنا كان يشترك مع محمد لطفى جمعة – صاحب السيرة النبوية التى أطلق عليها عنوان « ثورة الاسلام وبطل الأنبياء » – فى اعتبار أن الاسلام ثورة اصلاحية قبل أى شيء آخر وان صفة محمد (صلى الله عليه وسلم) كثائر يحمل رسالة اصلاحية تغلب على كل صفاته . ولهذه الصفة أهمية خاصة عند المؤلف فقد كتب فى مقدمة كتيب « دليل الثائر » الملحق بمسرحية « الانسان والسوبرمان » يقول : « ان كل شخص ذى نزعة دينية أصيلة هرطيق . وهو – بالتالى – انسان ثورى » . كما انه قال عن نفسه فى مقدمة مسرحية « ميجور بارباوا » أنه كاتب ثائر وقد كان دائما وسيظل ثائرا الى الأبد ، ايمانا منه بأن اعادة النظر فى الاوضاع القديمة ونقدها والثورة عليها هى السبيل الوحيد للاستفادة من عبر التاريخ والارتقاء بالجنس البشرى .

وقد راينا تحت عنوان « رأى برنارد شو فى محمد (صلى الله عليه وسلم) « من هذا البحث أن نوع الانبياء المناضلين كان أقرب أنواع الانبياء الى طبيعة هذا المؤلف وأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان النبى الذى تتوافر فيه كل شروطه . والصفة القرآنية التى تقابل صفات الثورة والتمرد على قوانين روما التى وصف بها شو بطله هى الصفة المستمدة من لفظة « الجهاد » .
ونحن لا نشك فى أن آيات مثل : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم » (التحريم – الآية ٩) و « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » (الفرقان – الآية ٥٢) وغيرهما من الآيات العديدة التى

يحث القرآن فيها على الجهاد فى سبيله ، وحقيقة ان الجهاد الذى اخذ به الرسول صلوات الله وسلامه عليه نفسه والجهاد الذى دعا القرآن المسلمين اليه كان جهادا فى سبيل الله والانسانية لا حربا كحروب روما تهدف الى تحقيق الغنى والعظمة عن طريق النهب والقتل ، كانت فى ذهن المؤلف حين وصف قيصر وحين كتب فى « البرولوج » يقول : « بومبى يقف ضدى ، وروما القديمة تقف ضدى ، والقانون والفيالق : كلهم كلهم ضدى ، ولكن الآلهة أعلى من هؤلاء . أعلى منهم بكثير » .

فاذا انتقلنا من « البرولوج » الى المسرحية ذاتها لوجدنا أن كثيرا من الصفات التى نسبها برنارد شو الى قيصر فيها مقابل فى القرآن منسوب الى نبى الاسلام (صلى الله عليه وسلم) ولذلك فاننا نرجح أن تكون شخصية قيصر التى رسمها المؤلف فى المسرحية هى شخصية محمد التى جاء وصفها فى القرآن الذى قرا « شو » ترجمته أو هى الشخصية التى تنتج من اتباع جميع ما ورد فى القرآن من تعاليم وأوامر ونواه . ويلاحظ هنا أن المستشرق « مارجليوث » كتب مقدمة قصيرة لترجمة القرآن التى نشرتها دار « افريمان » للنشر جاء فيها ما يأتى : « .. فالحديث عن القرآن هو اذن ، فى واقع الامر ، حديث عن محمد والمرء اذ يحاول الوقوف على قيمة الكتب الدينية يحاول فى الوقت ذاته أن يكون فكرة عن شخص النبى . والحق أن من الصعب العثور على حالة اخرى فيها مثل هذا التطابق التام بين العمل الادبى وافكار الانسان الذى انتجه » . مارجليوث وان كان يتحدث هنا عن القرآن باعتباره « عملا ادبيا » انتجه محمد لا باعتباره وحيا من الله تعالى يقرر الحقيقة التى

قررتها السيدة عائشة رضى الله عنها حين قالت — ولا يستبعد أن يكون برنارد شو قد أطلع على قولها فى مرجع من المراجع الاسلامية لسيرة النبى (صلى الله عليه وسلم) فى وصف الرسول : « كان خلقه القرآن » .

واذا رجعنا الي ما ذكرناه فى هذا البحث تحت عنوان: « قيصر المسرحية » من صفات قيصر واردنا أن نعرف الصفات المماثلة التى وصف بها محمد فى القرآن لوجدنا ما يأتى :

ـ لم يرد فى القرآن وصف لعظمة محمد العسكرية ، على اعتبار أن النصر من عند الله : « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » (آل عمران ـ الآية ١٢٦) . ولابد أن برنارد شو رأى أن القرآن لم ينسب النصر الى محمد أو الى المسلمين فى أى مناسبة من المناسبات فلم يجعل قيصر يقول فى العبارة التى نقلناها : « كلهم ضدى ولكننى سأنتصر عليهم » بل جعله يقول « كلهم كلهم ضدى ولكن الآلهة أعلى من هؤلاء . أعلى بكثير » . وقد استعمل كلمة « الآلهة » فى صيغة الجمع مراعاة لمقتضى الحال فان الرومان — وقيصر — لم يكونوا يؤمنون باله واحد بل بآلهة كثيرة . وخليق بالذكر فى هذا السياق أن صمت القرآن عن الأشادة بعظمة محمد العسكرية أو حتى عن مجرد ذكر يقابله فى الكتب التى كتبها قيصر عن فتوحاته العسكرية حديث مستمر عن انتصاراته وعن صفات الشجاعة والحصافة والحكمة وطول الباع التى أظهرها فى المعارك المختلفة والتى تحققت بفضلها هذه الانتصارات . وقد ترتب على لهجة التفاخر التى استخدمها قيصر فى سرد معاركه وانتصاراته أن قرر برنارد شو أن يطرح جانبا — كما رأينا — كل ما كتبه قيصر عن فتوحاته على أساس

انه غير صادق ، وان يعتمد فى كتابة المسرحية على كتاب « مومن » . ولابد أنه خرج من هذه القراءة أيضا بدليل جديد على عظمة محمد (صلى الله عليه وسلم) بالمقارنة بقيصر فعظمة محمد فى المجال العسكرى هى التواضع ذاته اما عظمة قيصر فهى الغرور . هذا — بطبيعة الحال — الى جانب أن محمدا كان يحارب فى سبيل الله أى من أجل مبدأ بينما كان قيصر التاريخى يحارب فى سبيل روما أو لتحقيق مجد شخصى . وقد قال « شو » عن قيصر التاريخى أن عظمته خارج ميدان القتال كانت أكبر من عظمته فى الميدان . ونحن لا نشك فى أن هذا كان راى « شو » أيضا فى عظمة نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ولذلك قال عن قيصر المسرحية أنه حين دخل الحرب انما دخلها مضطرا لأنه وجد أن الكلام والمال لا يكفيان لاجتذاب الناس اليه وأنهم بحاجة الى أمجاد حربية .

— أما عظمة محمد السياسية التى تقوم على عدم الاعتداء وتغليب الحلول السلمية على الحلول العسكرية وعدم اللجوء الى الحرب الا للضرورة القصوى وسماحة النفس وكراهية الانتقام أي الأخذ بالثأر الذى كان صفة متأصلة من صفات الجاهلية فتتضح من الآيات التالية والآيات التى فى معناها :

— « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » (الأنفال — الآية ٦١) .

— « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (المائدة — الآية ٨٧)

— « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (فصلت — الآية ٣٤)

ـ « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (النحل ـ الآية ١٢٦)

وعشرات الآيات التى تدعو للصبر وكظم الغيظ والعفو والصفح والاحسان وهى آياته كان التزامها والعمل بموجبها من العوامل الرئيسية التى أدت الى نجاح الدعوة الاسلامية وألفت حول الرسول ودينه قلوبا ملأتهاالاضغان والاحقاد والحزازات من قبل ويسرت دخول الأعداء بالجملة فى الاسلام :

ـ « اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » (آل عمران ـ الآية ١٠٣) .

ـ « وألف بين قلوبكم لو أنفقت مافى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » (الانفال ـ الآية ٦٣)

وأما وداعة الرسول (ص) وتواضعه وطيبته ورقة حاشيته فيلخصها شق هذه الآية الكريمة :

ـ « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (آل عمران ـ الآية ١٥٩)

ـ والآية « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (التوبة ـ الآية ١٢٨)

وأما احساس الرسول (ص) الشديد بالمسئولية وحرصه على اداء واجبه ولو على حساب مشاعره وراحته وكونه لا يسمح لشيء بأن يشغله أو يصرفه عن عمله أو عن النهوض بمسئولياته فلابد أن المؤلف استنتجها من الآية التى تقول :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال أقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا » (التوبة ـ الآية ٢٤) . وهذه الآية الكريمة وإن كانت تتجه الى المسلمين عامة فهى تصلح لوصف أخلاقه عليه السلام .

ـ وأما حرصه على الا يذكر أحدا بسوء أو أن يغلظ على احد أو أن يحتقر احدا أو أن يسخر من أحد فقد وجد « شو » أدلته ثابتة في تعاليم القرآن كما وردت في الآيات التالية وأمثالها :

« ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور » (لقمان ـ الآية ١٨) .

« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب » (الحجرات ـ الآية ١١)

ـ وأما حرصه على الانصاف حتى مع الاعداء فقد وجد برناردشو شاهدا في مثل هذه الآية من سورة المائدة :

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنان قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (الآية ٨)

وهكذا فانه ما من صفة من صفات قيصر المسرحية الا ونجد مقابلا لها فى القرآن الكريم اما وصفا للرسول أو كجزء من تعاليم رسالته عليه الصلاة والسلام ، وهذا

يؤكد ما ذهبنا اليه من ان برنارد شو بدأ بأن كون فى ذهنه صورة للرجل الكامل — أى محمد (ص) — ثم خلعها على قيصر المسرحية . أما قيصر التاريخى فقد كان يتصـف الى حد ما ببعض هذه الصفات ولكن احداً من المؤرخين لم يقل أنه كان يتحلى بها جميعا أو حتى بمعظمها كما أن مثالبه — التى برىء منها رسول الاسلام — كانت كثيرة كما رأينا .

الرد على المطاعن

تضمنت المسرحية بعض العناصر التى لا يمكن ان تكون قد وردت فيها على سبيل الصدفة والتى يرجـح أن المؤلف قصد بها الدفاع عن محمد (ص) وعن الاسـلام فى عدد من المطاعن التى وجهت اليهما فى كتابات المستشرقين والمبشرين .

لقد لاحظ بعض من كتبوا عن الرسـول (ص) فى الغرب أن بعض زوجاته كن أصغر منه سنا بكثير ، وبنوا على هذه الملاحظة آراء عن حياة محمد الجنسية تنطوى على تجريح واضح . وقد رأينا فيما سبق أن بعـض دارسى مسرحية « قيصر وكليوباترا » قد تسـاءلوا عن السبب الذى جعل المؤلف يخفض سن كليوباترا فى المسرحية خمس سنوات عن سنها الحقيقى . وفى رأينا انه فعل ذلك لأنه اراد أن يخلق فى حق قيصر المسرحية وضـعا شبيها بذلك الذى وجهت الى رسول الاسلام فى شـأنه المطاعن ليتمكن من الدفاع عنه . ويتحصل دفاع برناردشو عن الرسول) (ص) من هذه الناحية فى الكشف — فى علاقة رجل الخمسين بصبية ارتبط بها بصلة من الصلات —

عن جانب اغفله الطاعنون تماما وهو جانب الحدب والحنو والتسامح والرعاية التى تشبه الأب لابنته . لقد جعل « شو » قيصر المسرحية يغمر كليوباترا بهـذه العواطف وهى ليست زوجة له وهو يعلم عيوبها وسوء طويتها ، وترك للقارىء ان يتصور من خلال ذلك مدى المحبة والعطف اللذين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يحبو بهما نساء كن زوجاته الشرعيات وبنات أصدقائه ممن دخلن وذويهن دينه أو ممن أراد عن طريقهن أن يستميل قلوب آبائهن وقومهن من أعدائه . نساء لم يكن فى احداهن شىء يمت ولو من بعيد بصلة الى انانية كليوباترا وقسوة قلبها والتواء سجيتها وطموحها ونزعاتها الشريرة .

وقد جعل « شو » « الفارسى » فى أول المسرحية يقول لضباط الحرس ان قيصر يحب النساء وانه « يتخذ منهن صديقات ويستشيرهن فى أموره » ، وكان غرض المؤلف من هذا القول هو نفس الغرض الذى توخاه من وصف علاقة قيصر بكليوباترا فى المسرحية اى ابراز حقيقة أن علاقة محمد بالنساء لم تكن وحسب علاقة المتعة الحسية التى وقف عندها المستشرقون وحملوها فوق ما تحتمل وكأنها العلاقة الوحيدة فى الزواج ، وانما علاقة معاشرة انسانية تكرم المرأة وتشرف الرجل . ومن المحقق فى هذا الصدذ ان برناردشو لم يأت بوصفه لعلاقة محمد بالمرأة فى هذه المسرحية من فراغ ، وانه أنما استمد هذا الوصف مما وجده فى القرآن وفى سورة « الروم » بالذات وهى السورة التى تقول فى الآية ٢١ : « ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة . »

وفى راينا أن المؤلف لم يرد فى هذه المسرحية ان يدافع عن محمد (ص) وحسب بل أراد كذلك أن يدافع عن الاسلام الذى كثيرا ما يتهم فى كتابات المستشرقين وغيرهم بانه يغض من قدر المرأة ولا يعترف لها بحق ويجعل مصيرها بين يدى الرجل يتصرف فيها كما يتصرف فى ملكه ، وأن « شو » حين جعل رئيس الحرس فى بداية المسرحية يقترح قتل جميع نساء القصر انما اراد أن يفتح أمام القارىء الذى اكتشف أن قيصر المسرحية هو محمد بابا للمقارنة بين وضع المرأة عند الافريق ووضعها فى الاسلام الذى رمز له بعلاقة قيصر وكليوباترا . ولقيصر فى غير المسرحية كتابات كثيرة عن وضع المرأة السىء فى المجتمع الغربى وقد كتب مسرحية كاملة عنوانها « مهنة مسز وارين » عن مشكلة البغاء فى بريطانيا أوضح فيها أن هذه المشكلة ناتجة عن أوضاع المجتمع البريطانى فى المقام الأول .

والأمر الثانى الذى أراد برناردشو — فيما نحسب — ان يدافع عن الاسلام بصدده فى هذه المسرحية هو موضوع الرق .

لقد وجهت الى الاسلام والى العرب فى خصوص الرق اتهامات كثيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لاسيما بعد أن الغته انجلترا فى جميع أنحاء الامبراطورية البريطانية عام ١٨٣٤ وبعد أن الغته الولايات المتحدة بعد نهاية حرب الانفصال عن انجلترا عام ١٨٦٥ . فبالرغم من أن تجارة الرقيق لم تمارس فى أى بلد من البلاد الاسلامية أو العربية على نطاق يشبه ، ولو من بعيد ، ذلك الذى عرفته الدول الغربية منذ قرون

طويلة ، وأن معاملة الرقيق تحكمها فى الاسـلام قواعـد انسانية تخفف من وقره وتشجع على انهائه وهى أحكام لم يكن لها نظير فى قوانين البلاد الغربية حين كانت تجيز الرق ، شنت دول الغرب حملات دعائية ضارية ضـد المجتمعات الاسلامية فى منطقة الخليج وفى شرق افريقيـا التى لم تبادر الى الغاء الرق أسوة بالدول الغربيـة ، وانتهزت الهيئات التبشيرية هذه الفرصة لتشهر بالاسـلام وتظهره بمظهر الديانة التى تحبذ الرق وتعمل على بقائه.

وقد أراد برناردشو أن يذكر قراءه بأن الاسلام لم يكن هو الذى ابتدع نظام الرق وبأن الرق كان موجودا على نطاق واسع عند الاغريق وعند الرومان ، فنجعل فى القصر الملكى عددا من العبيد كما جعل « بريتانوس » عبدا لقيصر . ويتضح من بعض كتابات « شو » أن الحـاكم الذى تركه قيصر فى مصر كان بالفعل ابنا لعبد أعتق . وقد أدخل المؤلف هذا الجندى فى المسرحية واطلق عليه اسم « روفيو » ، ولكن اصراره على جعل قيصر ينادى « روفيو » فى أكثر من موضع بـ «يابنى» مع تكرار هذه الكلمة يرجح لدينا أنه قرأ قصة زيد بن حارثة الذى تبناه الرسول (ص) وزوجه من ابنة عمته وأمر ابنه اسـامة قبل وفاته (ص) على جيش جعل فيه المهاجرين الأولين ومنهم أبوبكر وعمر ، وأن المؤلف أراد أن يستخدم تكريم النبى (ص) لأسامة ممثلا فى « روفيو » لابراز ناحية من نواحى عظمته عليه السلام .

والأمر الثالث الذى اراد برناردشو ، فى نظرنا ، ان يدفع فى شأنه مطعنا وجه الى الاسلام هو حريق مكتبة الاسكندرية . لقد القى بعض المؤرخين تبعة هذا الحريق

على العرب حين فتحوا مصر . ولم يصدق برناردشو هذه الدعوى ورجح الرأى القائل بأن هذا الحريق حدث فى عهد كليوباترا أى قبل سبعة قرون وأكثر من فتح العرب لمصر وشرح فى المسرحية الظروف التى أدت الى حدوثه .

واخيرا فان شو ــ فيما نتصور ــ اراد أن يدافع عن محمد فى موضوع الاغتيالات التى ذكر المستشرقون ــ نقلا عن المصادر العربية ــ أن الرسول (ص) قد أمر بها ضد بعض أعداء الاسلام . وقد أعرب المؤلف عن رأيه فى مبدأ هذه الاغتيالات فى الحوار الذى أجراه فى الفصل الخامس من المسرحية بين قيصر و « روفيو » بشأن مقتل « فتاتانيتا » . لقد شرح « روفيو » لقيصر أنه قتل « فتاتانيتا » لأنها كانت تقتل الناس بناء على أمر كليوباترا وانه خشى أن تقتله هو ــ أى قيصر ــ فى يوم من الايام وانه قتلها ليخلص الناس من شرها لا ليعاقبها أو ليثأر لمقتل « يوتينوس » . وقد أقره قيصر على فعلته وقال له : « لو انك وقفت منها موقف القاضى ثم سلمتها ، بعد شكليات بغيضة ومناشدة للالهة ، الى جلاد مأجور لكى يقتلها على مشهد من الناس باسم العدالة ، لانتابتنى رجفة كلما مست يدى بعدها يدك . فتلك هذا كان قتلا طبيعيا وأنا لا أستفظعه » . وكان شو يكره المحاكمات الصورية التى تتذرع بها السلطات الحاكمة قتل بعض الناس ويرى انها مبنية على النفاق ، وقد كتب كلاما كثيرا فى هذا الخصوص وصور هذه المحاكمات فى احدى مسرحياته وهى مسرحية « تلميذ الشيطان »

الثمانينات

٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩



مرآة العقل العربي

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٨٢٧٤ / ٨٩

الترقيم الدولى : ٣ ـ ٤٥٦ ـ ١١٨ ٩٩٧ ISBN

هـــذا الكـتاب

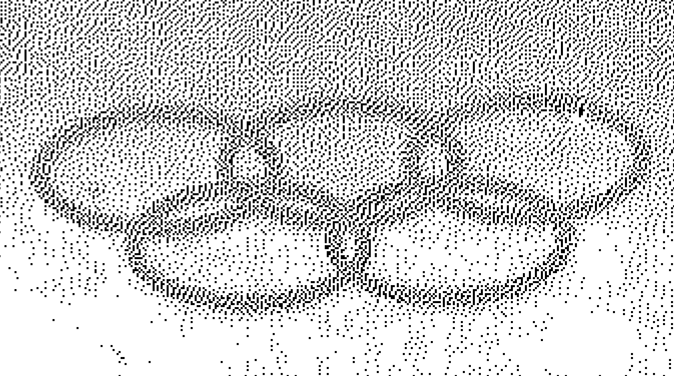
● هذا كتاب هام عن منظور الاسلام في مفهوم واحد من كتاب البشرية المرموقين چورج برناردشو .. وهو كاتب معروف بمواقفه المستنيرة في مسألة الاديان السماوية .

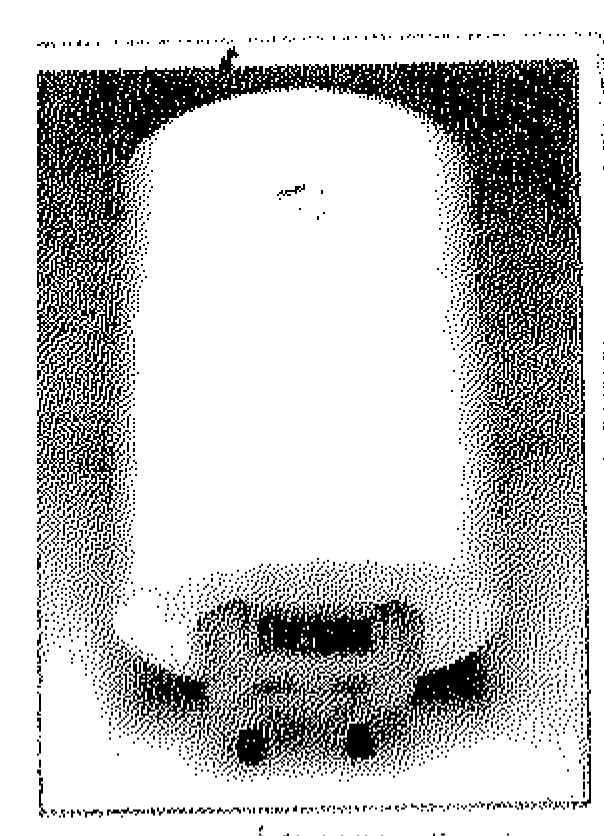
وقد اعد الكاتب هذا الكتاب ضمن رسالة الماچستير الذى حصل عليها من جامعة جرنوبل الفرنسية .

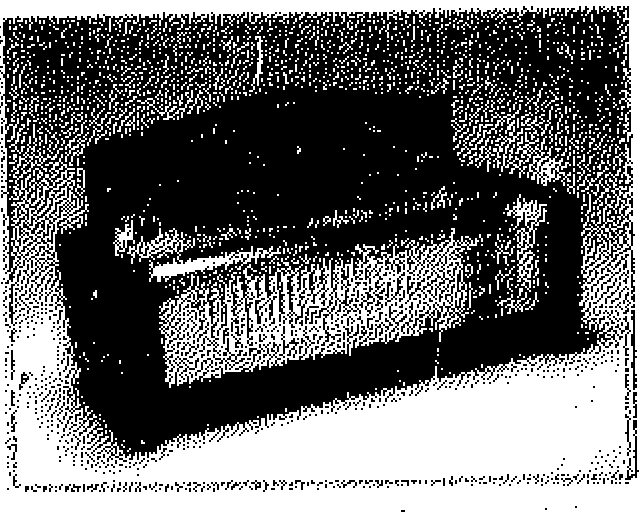
وتجيىء اهمية الكتاب فى انه رد بليغ وحاسم في مسألة الهجوم على الاسلام لدى بعض كتاب الغرب الاقل موهبة ، وعلى رأسهم سلمان رشدى الذى حققت شهرته الافاق .. لانه تطاول على الاسلام .

والكتاب مكتوب باسلوب سلس .. ومنهج دقيق .. وقد راح مؤلفه يتناول جوانب عديدة لدى شو في مسرحياته .. ومواقفه مع العرب والشرق مثل قضية دنشواى .

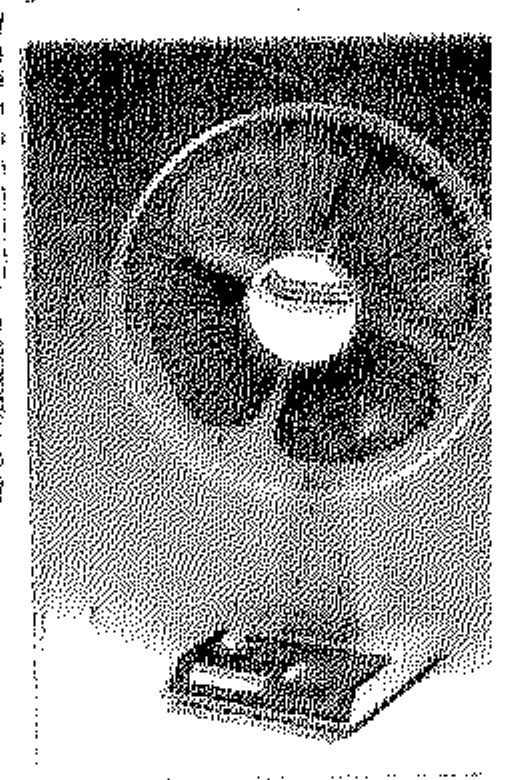
عالم الأجهزة الكهربائية تحت إسم واحد ...
أوليمبيك إليكتريك











المصانع: شركة القاهرة للصناعات الحديثة - القاهرة - طناش ت: ٢١١/٢٠٨٣٠ ، ٢٤١٤٨٣٢ الوكلاء الوحيدون: شركة المنتجات الهندسية والتوكيلات
١٢ شارع سيف الدين المهراني - ميدان رمسيس ت: ٩٠٨٨٤٤ - ٩٠٠٦٧٢ - ٩٠٠... - فاكسميلي: ٩١١١٩٠ - تلكس: ٢٢٥٦٠ UN OLMPC ص.ب ١٢٨٦ - القاهرة